احترامُ العلماءِ وتوقيرُهم

الجزاءُ منْ جنَسِ العملِ



الطبعة الأولي

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م



@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

احترامُ العلماءِ وتوقيرُهم

الجزاءُ منْ جنَسِ العملِ

(أهلُ الحديثِ أنموذجًا)

تأليف

أبي إسحاق

محمود بن أحمد الزويد




بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة

عن جعفر بن برقان، عن وهب قال: «طُوبى لمن شغلَه عَيبُه عن عيب أخيه، طوبى لمن تواضعَ لله من غير مَسكنةٍ، طوبى لمن تصدَّقَ من مالٍ جمعَه من غير معصيةٍ، طوبى لأهل الضرِّ وأهلِ المسكنةِ، طوبى لمن جالسَ أهلَ العلمِ والحلمِ، طوبى لمن اقتدى بأهل العِلمِ والحلمِ والخشيةِ، طوبى لمن وسعته السنَّة فلم يعدّها»(١).

يا طالِبَ العِلم لا تَبْغِي بِه بَدَلا فقَدْ ظَفَرْتَ ورَبِّ اللَّوْحِ والْقَلَم
وقَدِّسِ العِلمَ واعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ فِي القَوْلِ والفِعْلِ والآدابَ فَالْتَزِم
واجْهَدْ بِعَزْم قَوِيٍّ لا انْثِنَاءَ لَهُ لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدْرَ العِلْم لَمْ ينم
والنُّصْحُ فابْذُلْهُ لِلطُّلابِ مُحْتَسِبًا في السِّرِّ والْجَهْرِ والأُسْتاذَ فَاحْتَرِم(٢)

ونقل الشاطبيُّ عن بعضهم قولَه: «مَن طلب العِلمَ لله؛ فالقليلُ من العِلم يَكفيه، ومَن طلبه للنَّاس؛ فحوائجُ النَّاسِ كثيرةٌ»(٣).

---

(١)- سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٢)، وروي مرفوعًا وهو واهٍ، أخرجه البزار (٦٢٣٧)، وابن حبان في "المجروحين" (٢/ ٣٠٦).

(٢)- الوصيَّة الميميَّة (ص٣).

(٣)- الموافقات للشاطبي (١/ ٣٥٢)، وهو بنحوه في "الزهد" لأحمد (١٨٩٠)، قال مالك بن دينار: «من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفي، ومن طلب العلم لحوائج الناس فحوائج الناس كثيرة».

مُقدِّمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُ بِهِ، ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالِنا؛ مَن يَهده اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ ألّا إلهَ إلّا اللهُ، وحدَه لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسولُه ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠]

أمّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وأحسنَ الهدي، هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بِدعة، وكلَّ بِدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فهذا كتابٌ مختصرٌ اجتهدتُ فيهِ أنْ اذكرَ صورًا من تعظيمِ السَّلفِ لأهلِ العلمِ واحترامِهم لهم، وجعلتُه فيه سيرِ بعض أهلِ الحديثِ(١) ومواقفهم الأدبيّةِ

(١)– وكم حبهم يغمر قلبي، ووجودهم في الحياة أنس لي، ولله درُّ الحافظ السلفي إذ يقول =

في وقت الطّلبةِ وزمنِ المشيخةِ والتّصدرِ؛ ليكون ذلك معينًا لأهل العِلمِ شيوخًا وطلابًا، وهذا موضوعٌ عظيمُ القدرِ، كبيرُ الشأنِ، الكلامُ فيه يطولُ، والحديثُ عنه لا ينقطعُ ولا يزولُ، وقد تذاكره العلماءُ بينهم، وتمثَّلُوهُ بأنفسِهِم، وتحدَّثوا عنهُ في كتبِهم؛ وهذا الذي بين يديكَ موضوعٌ منْ تلك الموضوعاتِ الأدبيَّةِ العلميَّةِ، تحدَّثتُ عنها في ظلِّ واقع مبشرٍ، وحالٍ مقلقٍ، فأمَّا البُشرى فلمَّا يُرى من تعدد المعاهدِ الشرعيَّةِ -وكثرتها بحول اللهِ تعالى موجودٌ في مختلف البِقاعِ وبشتّى الأمصارِ-، وهو مقلق؛ لأنَّ هذا العِلمَ يحتاجُ إلى رعايةٍ وتزكيةٍ، فينبغي بذل الجهدِ من القائمين عليها في تخريج طلَّاب عِلمٍ؛ لهم همٌّ وعِلمٌ، ودرايةٌ ورعايةٌ، وتزكيةٌ وتربيةٌ؛ حتى يُؤتي العلم ثمرته، وكما قال ابن حزم: «سياسةُ العِلمِ أعوص من إتقانه»[(١)]، وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «سياسةُ النَّاسِ أشدُّ من سياسة الدَّوابّ»[(٢)]. فالعلمُ الشرعيُّ الذي نطمحُ أن نراه واقعًا حقيقةً بلسان الحالِ والمقالِ في نفوسنا واخواننا وأهلِنا هو العلمُ النَّافعُ: "الذي تظهرُ آثارُه على الطّالب في تصرفاتِه وتحركاتِه، وفي خطابه ومُعاملتِه، وفي كل أحوالِه.

= فيما ذكره الذهبي عنه في "السير" (١٩/ ٢٣٠-٢٣١).

للهِ دَرُّ عِصَابَةٍ... يَسْعَوْنَ فِي طَلَبِ الفَوَائِدْ
يُدْعَوْنَ أَصْحَابَ الحَدِ... يثِ بِهِمْ تَجَمَّلَتِ المَشَاهِدْ
طَوْرًا تَرَاهُمْ بِالصَّعِيـ... ـدِ وَتَارَةً فِي ثَغْرِ آمِدْ
يَتَّبَعُوْنَ مِنَ العُلُو... مِ بِكُلِّ أَرْضٍ كُلَّ شَارِدْ
وَهُمُ النُّجُوْمُ المُقْتَدَى... بِهِم إِلَى سُبُلِ المَقَاصِدْ.

(١)- معجم الأدباء (٤/ ١٦٥٦)، ونحوه في "السير" للذهبي (١٨/ ٢٠١).

(٢)- آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (ص٢٠٧)، و "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ٣٤٤).

فذلك عِلمٌ يُورِّث الخشيةَ والتواضعَ، والخمولَ وكراهيةَ الظُّهورِ، ويولِّدُ في نفس صاحبه خوفَ اللهِ في السرِّ والعلنِ، ويقودُه إلى قولِ الحقِّ دونَ محاباةٍ أو تودُّدٍ، ليظهرَ بذلك صفاءَ المعدَنِ، وصدقَ الطّلبِ، ويَنكشف المسبوكُ من المزيّفِ البُهرج، واللهُ المستعان"(١).

وَلا تُعْطِيَنَّ الـرَّأْيَ مَـنْ لا يُرِيـدُهُ   فَـلَا أَنْـتَ مَحْمُـودٌ وَلا الـرَّأْيُ نَافِعُـهْ(٢)

قال وكيعٌ: «قالت أم سفيان الثوريّ لسفيان: يا بنيَّ اطلب العِلمَ وأنا أكفيك بمغزلي، وقالت له: يا بنيَّ إذا كتبت عشرةَ أحرفٍ فانظر هل ترى نفسك زيادةً في مشيك وحلمك ووقارك؛ فإنْ لم يزدك فاعلم أنَّه لا يضرُّك ولا ينفعُك»(٣)، وهكذا ينبغي أنْ يكون طالب العِلمِ، يلحظ نفسه وأخلاقَه وسلوكَه، هل تغيَّر إلى الأحسن ونحو الأفضل بعد طلبه للعلم، أم بقي كما هو من دون أنْ يتغيّر(٤).

---

(١)– مقدمتي على كتاب "إعانة المتعلم بتقريب حلية طالب العلم"، بتصرف.

(٢)– آداب الشافعي لابن أبي حاتم (ص٢١١).

(٣)– صفة الصفوة (٣/ ١٨٩).

(٤)– وقد كان السلف يتعبدون لله، ثمَّ يطلبون العلم فيزدادون بالعلم عملًا، وبه تواضعًا وحكمًة وحلمًا، كما روى ابن ماجه في "سننه" بسندِهِ (٦٢) عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «كنَّا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثمَّ تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا». قوله: (حزاورة)، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم. كذا في "الصحاح".

وروى الرامهرمزي في "المحدث الفاصل" (ص١٦٢) قال أبو الأحوص: «كان الرجل يتعبد عشرين سنة، ثمَّ يكتب الحديث».

وفي "الجامع لأخلاق الراوي" بسندِهِ (١/ ١٤٣)، عن عاصم بن عصام البيهقي يقول: «بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بالماء فوضعه، فلمَّا أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: «سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل».

=

وقال أبو جعفر أحمدُ بن أبي سليمان، فيما أوصى به لطالب العِلمِ: «يا طالبَ العلمِ، إذا طلبت العِلمَ فاتخذ له قبل طلبه أدبًا تستعين به على طلبه، واتخذ له بعد طلبه أدبًا تستعينُ به على حمله. ومن أدب العلمِ الحلمُ، والحلمُ كظمُ الغيظِ، وأن يغلبَ علمُك وحلمُك هواكَ إذا دعاك إلى ما يَشينك. وعليك بالوقار والتّعفُّفِ والرزانةِ والصّيانةِ والصّمتِ والسّمتِ الحسن، والتودُّدِ إلى الناس ومجانبةِ مَن لا خير فيه، والجلوسَ مع الفقهاء ومحبَّة الأخيارِ، ومنابذة الأشرارِ والقول الحسن في إخوانك والكفّ عمّن ظلمك. ولا تهمز أحدًا بقول ولا تلمزه ولا تقل فيه ولو كان عدوّك. فإن فعلت ذاك شرفتَ عند العقلاءِ، وعرفت حقَّك الجلساء، ولحقت بالعلماءِ، وهابكَ السُّفهاءُ، وحللت محلَّ الأبرارِ، وبرئت من الأشرار. فافهم وتفهَّم واستعن بالله يُعنك»(١).

ولله درُّ الحافظ ابن عبد البرّ حينما قال: «خيرُ العلومِ ما ضبط أصلُه، واستذكر فرعُه، وقاد إلى الله تعالى، ودلَّ على ما يَرضاه»(٢).

=

وفي "حلية الأولياء" (٧/ ٢٧١)، قال الإمام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت».

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن– عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود– أنهَّم قالوا: «كنَّا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات لم نجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا».

وعن علي بن حسين رحمة الله عليه قال: «من ضحك ضحكة، مج مجة من العلم» سنن الدارمي "صيانة العلم" (١/ ٤٧٢).

وكان الأوزاعي يقول: «كنا نضحك ونمزح، فلما صرنا يقتدى بنا، خشيت أن لا يسعنا التبسم» سير أعلام النبلاء (٧/ ١٣٢).

(١)– طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/ ٥٠٦).

(٢)– التمهيد" (١٤/ ١٣٣-١٣٤)، فانظر هل قادك علمك إلى الله، وانظر بالله عليك هل

=

فالأدبُ: "إذا كانت ألفاظُه حافلةٌ بما يُمتعُ أو يقنعُ أو يفيدُ كان إنتاجُهُ عملًا مثمرًا لا يقلُّ خطرًا عن صنع آلةٍ أو اختراعِ قنبلةٍ أو كشف دواءٍ.

ورجالُ الآدابِ الخليقون بهذه الإضافة إليه أقلُّ عددًا في كلّ أمَّـةٍ من رجالِ العملِ والمالِ والسّياسةِ، ووظيفتهم وهي التفكيرُ والتعبيرُ أقوى أثرًا في رقيّ الأممِ من وظائف أولئك جميعًا"(١).

عوِّد لسانك قلَّةَ اللّفظِ   واحفظ لسانك أيّما حفظ
إيَّاك أنْ تعظَ الرِّجالَ   وقد أصبحت محتاجًا إلى الوَعظِ

ورضي اللهُ عن أمير المؤمنين علي، حينما قال: «يا طالبَ العلمِ، إنَّ العلمَ ذو فضائل كثيرة، فرأسُه التّواضعُ، وعينُه البراءةُ من الحسد، وأذنُه الفهمُ، ولسانُه الصّدقُ، وحفظُه الفحصُ، وقلبُه حسن النيّةِ، وعقلُه معرفةُ الأشياءِ والأمورِ الواجبةِ، ويدُه الرَّحمةُ، **ورجلُه زيارةُ العلماءِ**، وهمتُه السّلامةُ، وحكمتُه الورعُ، ومُستقرّه النّجاةُ، وقائدُه العافيةُ، **ومركبُهُ الوفاءُ**، وسلاحُه لين الكلمةِ، وسيفُه الرِّضى، وقوسُه المداراة، وجيشُه مجاورةُ العلماءِ، **ومالُه الأدبُ، وذخيرتُه اجتناب الذُّنوبِ**، وزادُه المعروف، وماؤُه الموادعةُ، ودليلُه الهدى، ورفيقُه صحبةُ الأخيارِ»(٢).

وختامًا: أُعيذُك بالله، وأعوذُ به أنْ تكونَ من هذا الصنّفِ الذي حذَّر منه

=

دلك على ما يرضي ربك عنك.

(١)– وحي الرسالة للزيات (٣/ ٢٠٧).

(٢)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٩٦)، وهذه نصيحة نفيسة قيمة ينبغي لطالب العلم أن يقف معها تأملًا وتفكرًا.

الصّنعاني بقولِه: «لئيمُ الطّلبةِ وخبيثُ الحضَّار عند العالم، متتبعُ العثراتِ، وكاشفُ العوراتِ، ودافنُ الحسناتِ؛ وما أكثر هذا النَّوعِ -لا كثَّرهم اللهُ-، فإنَّهم الذين أفسدوا مَعالِمَ العِلمِ، وملأوا المواقف على العلماء أحاديثَ كاذبةً كما صنعه المعرّي[١] في الأقدمين، حيث عمد إلى نوادر مسائل العُلماءِ فنظمها كالتّلطيخِ عليهم، بقوله:

الشـــافعيُّ مـــن الأئمـــة واحـــدٌ ولـــديهم الشّـــطرنجُ غيـــر حـــرام

والأبياتُ السائرةُ التي يلهجُ بها من كان متتبعًا لمواضع العللِ، وبئس الجزاءُ أن يجازي التّلميذُ شيوخَه بإشاعة هفواتهم وزلّاتهم، فإنَّه لا بدَّ لكلِّ جوادٍ من كبوةٍ، ولكلِّ صارمٍ من نَبوةٍ:

ومَـن ذا الـذي ترضـى سـجاياه كلّهـا كفـى المـرءُ نُـبلًا أن تعـدَّ معايبـه

فخيرُ النَّاسِ من أشاع الخيرَ عن العلماء، وأذاعَه ودافعَ عنهم إن سمع قادحًا فيهم»[٢].

واحذِّرُ نفسي وإيَّاك ممَّا حذَّر منه الماوردي كما قال: «ولا يظهرُ له الاستكفاء منه والاستغناءُ عنه -يعني الطّالب-، فإنَّ في ذلك كُفرًا لنعمته، واستخفافًا بحقِّه؛ وربَّما وجد بعض المتعلمين قوّةً في نفسه لجودة ذكائِه وحدَّةِ خاطرِه؛ فقصد مَن يُعلِّمه بالإعنات له والاعتراضِ عليه إزراءً به وتبكيتًا له،

---

(١)- قال أبو الفرج ابن الجوزي: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنهَّما صرحا، وهو مجمج ولم يصرح» ينظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٠)، والسبكي في "الطبقات" (٥/ ٢٨٨).

(٢)- التنوير شرح الجامع الصغير (٩/ ٥٢٨).

فيكون كمن تقدَّم فيه المثل السَّائرُ لأبي البَطحاء:

أعلِّمُــــه الرِّمايـــــةَ كـــلّ يـــوم فلمَّـــا اشـــتدَّ ســـاعدُه رَمـــاني

وهذه من مصائب العلماءِ وانعكاسِ حظوظِهم أنْ يصيروا عند مَن يُعلموه مُستجهلين، وعند مَن قدّموه مسترذلين»(١).

وقال مخلد بن الحسين: «إنْ كان الرَّجلُ ليسمعُ العلمَ اليسيرَ فيسودُ به أهلُ زمانِه، يعرفُ ذلك في صِدقِه وفي وَرعِه، وإنَّه ليروي اليوم خمسين ألف حديث لا تجوز شهادتُه على قلنسوته»(٢).

فأسألُ اللهَ بأسمائه الحسنى، وصفاتِه العُلى أن يجعل ما جمعه هذا الكتاب واقعًا نعيشه في تعظيم العلمِ وأهلِه، ومعرفةِ حقوقِهم وواجباتِهم، وأن يتقبَّلها مني –رغم تقصيري–، ويجعلها أجرًا وذخرًا لي ولوالدي وأهلي وكلّ مَن دلَّ عليها بخير، إنَّ ربي على كلّ شيءٍ قديرٌ.

❒❒❒❒

(١)– كما في كتابه القيم "أدب الدين والدنيا" (ص٦٩).
(٢)– الكفاية (ص١٤).

(نصائحُ وخواطر)

▤ الأدبُ عنوانُ طالبِ العلمِ، وسمتُه التي يُعرفُ بها.

▤ الأدبُ سجيّةٌ مرضيّةٌ، لا تَّصنعُ بغيض مشين.

▤ يعرفُ حقيقة الأدب: في مواطن الحزمِ، وفي مسائل الخلافِ، ومواردِ النّزاعِ.

▤ كان السَّلفُ يرحلون في تعلم الأدبِ كما يرحلون في السَّماعِ وطلب العلمِ.

▤ رغبةُ العلماءِ الرّبانيين في الأدب وهم في وقت الطّلبِ، أكثر من رغبتهم بالعلم بـأضعافٍ؛ لأنَّ الأدبَ قد يفوت بموت العالِمِ، والعلمُ يبقى في كتبه وعند طلّابِهِ.

▤ كان أهل العلمِ يحثُّون الطّالبَ على تعلُّم الأدبِ، كما يُرغِّبونه في العلم وأخذِه وسماعِه.

▤ إنَّ الأمةَ حتى تعودَ إلى سالف مجدِها العظيمِ، وتاريخِها التّليدِ؛ فلا بدَّ من الأخذ بالأسباب المعينةِ والمحقّقةِ لذلك: كقراءة سِير العلماءِ الرّبانيين، والقربِ منهم، والسّماعِ عليهم، والأخذِ عنهم، واحترامِهم، وإنزالِهم المنازل اللّائقة بهم(١).

---

(١) -وقد ورد في السنة نصوص كثيرة بشأن اجلالهم، ففي "سنن أبي داود" عن ميمون بن =

▤ كان العلماءُ محلّ رجوع القادةِ والأمراءِ، فيأخذون بكلامهم، ويَستفيدون من آرائهم، ويَستندون إلى أفكارهم، ففي "صحيح البخاريّ"، عن عبد الله بن عبّاس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: «كان القرّاءُ أصحاب مجلسِ عمرَ ومشاورتِه، كهولًا كانوا أو شبّانًا»(١).

❑❑❑❑

=

أبي شبيب، أنَّ عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا مرَّ بها سائل فاعطته كسرة، ومرَّ بها رجل عليه ثياب وهيئة، فأقعدته، فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنزلوا النَّاس منازلهم**» انظر: سنن أبي داود (٤٨٤٢) وأخرجه البيهقي في "الآداب" (٢٩٩) من طريقه، وأبي يعلى في "المسند" (٤٨٢٦) والحديث: إسناده منقطع، ميمون بن أبي شبيب لم يدرك عائشة عند الأكثر، وبقية رجاله ثقات، وانظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (١٧٩).

قال صاحب "عون المعبود" في شرحه للسنن (٥/ ١٣٦): «أي عاملوا كل أحد بما يلائم منصبه في الدين والعلم والشرف».

(١)– صحيح البخاري (٦٨٥٦).

[فضلُ معرفةِ أخبارِ أهلِ العلمِ]

إنَّ النَّاظرَ في تصانيفِ العُلماءِ في التّراجم والسِّيرِ، وكُتبِ الرِّجالِ، يدرك جليًّا أنَّ هذه التّصانيفَ لها بواعثُ وأسبابٌ كثيرةٌ، وأشهرُها وأنفعُها هو التّشبُّه بهؤلاءِ القومِ في صلاحهم، وعلمِهم، وجهادِهم، وصبرِهم، وفي كلِّ أحوالهم، ممَّا يكون لذلك أثرًا كبيرًا وبالغًا فيمن يأتي من بعدهم[1]. وقد أشار لذلك ابن خلدون في "تاريخه" بقوله: «البشرُ يأخذون معارفَهم وأخلاقَهم وما يَنتحلون به من المذاهب والفضائل: تارةً عِلمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة.

إلَّا أنَّ حصول الملكاتِ عن المباشرة، والتَّلقين أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا؛ فعلى قَدرِ كثرةِ الشّيوخ يكون حصول الملَكات ورسوخِها»[2].

وبهذا يقول الجاحظُ: «والإنسانُ بالتّعلم والتّكلفِ، وبطول الاختلافِ إلى العلماءِ، ومدارسةِ كتب الحكماءِ، يجودُ لفظه، ويحسنُ أدبُه، وهو لا يحتاجُ في الجهل إلى أكثر مَن ترك التّعلمَ»[3].

ورحم الله الإمام بشر الحافي حينما قال: «كم من النَّاس موتى تحيا القلوبُ بذكرهم، وأناسٌ أحياء تموتُ القلوب بذكرهم»[4].

---

(١)– انظر مقدمة ترتيب المدارك، للقاضي عياض (١/ ٢٣).

(٢)– تاريخ ابن خلدون "فصل: في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم" (١/ ٧٤٣-٧٤٤).

(٣)– البيان والتبيين (١/ ٨٩).

(٤)– تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص (ص٤٦٨).

وقال حمدون القصار: «مَن نظر في سير السَّلفِ عرف تقصيرَه وتخلُفَه عن درجاتِ الرِّجالِ»(١).

وقد نقلَ جمعٌ من أهلِ العلم فضلَ التعرفِ على أحوال العلماء، والاطّلاعِ على تراجمهِم، ومنْ هؤلاءِ الحافظُ ابن الصّلاح رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «فإنَّ معرفةَ الإنسانِ بأحوال العلماءِ رِفعةٌ وزينٌ، وإنَّ جهل طلبةَ العلمِ وأهلِه بهم لوصمةٌ وشينٌ، ولقد علمت الأيقاظ أنَّ العلمَ بذلك جم المصالحِ والمراشدِ، وأنَّ الجهلَ به إحدى جوالبِ المناقصِ والمفاسدِ، من حيث كونهم حفظة الدِّين الذي هو أسّ السّعادة الباقيةِ، ونقلةُ العلمِ الذي هو المرقاة إلى المراتب العاليةِ، فكمالُ أحدهم يكسبُ مؤداه من العلم كمالًا، واختلالها يورثُ خللًا وخبالًا، وفي المعرفة لهم؛ معرفة مَن هو أحقّ بالاقتداء، وأحرى بالاقتفاء، والجاهلُ بهم من مقتبسة العِلمِ مسو لا محاله عند اختلافهم بين الغثّ والسّمين، غير مميّز بين الرثِّ والوزين.

وقد روينا عن مسلم بن الحجّاج صاحب "الصّحيح" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه، قال: "إنَّ أوّل ما يجب على مبتغي العلمِ وطالبِه أن يعرفَ مراتبَ العُلماءِ في العلم، ورجحان بعضهم على بعض"، ولأنَّ المعرفةَ بالخواص آصرة ونسب، وهي يوم القيامةِ وصلة إلى شفاعتهم وسبب، ولأنَّ العالِمَ بالنّسبة إلى مقتبس عِلمه بمنزلة الوالدِ بل أفضل، فإذا كان جاهلًا به فهو كالجاهلِ بوالده بل أضلّ؛ ولعمري إنَّ من يَسأل من الفقهاء عن المزني والغزالي مثلًا، فلا يَهتدي إلى بعد

---

(١)- الاعتصام للشاطبي(١/ ١٦٣)، وانظر قوله في "طبقات الصوفية"، (ص٢٧)، وكذلك هو في "صفة الصفوة" لابن الجوزي (٤/ ١٢٢)، و "الرسالة القشيرية" (ص٢٤).

ما بينهما من الزّمان والمنزلة؛ لمنسوب من القصور إلى ما يَسوؤه، ومن النّقص إلى ما يهيضُه»(١).

ولله درُّ القائل:

شابكتُهم متبرّكًا بأكفِّهم إذ شابكوا كفًّا على كريمهْ
ولربّما يكفي المحُبّ تعلّلًا آثارُهم ويعدُّ ذاكَ غَنِيَمه(٢)

وهذا النوويُّ يتممُ ما أشار وأشادَ بهِ ابن الصَّلاحِ في معرفةِ وفضل الاطّلاع على تراجمِ أهل العلمِ، فيقولُ: «اعلم أنَّ لمعرفة أسماءِ الرّجالِ، وأحوالِهم، وأقوالِهم، ومراتبِهم، **فوائدُ كثيرةٌ**:

منها: معرفةُ مناقبِهم، وأحوالِهم، فيتأدّب بآدابِهم، ويقتبس المحاسنَ من آثارهم.

ومنها: مراتبُهم وأعصارُهم، فينزلون مَنازلهم، ولا يقصر بالعالي في الجلالة عن درجته، ولا يرفعُ غيره عن مرتبته، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وثبتَ في "صحيح مسلم" عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ليليني منكم أولو الأحلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلونهم ثلاثًا**»(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أمرَنا رسولُ الله ﷺ: «**أن نُنزلَ النَّاسَ مَنازلهم**».

---

(١)– طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٧٤-٧٥).

(٢)– الإفادات والإنشادات، للشاطبي (ص٩٢) ط: الرسالة، رسالة المسلسلات للكتاني (ص٥٢)، وانظر: بغية الوعاة (١/ ٢٠٠).

(٣) –برقم (٤٣٢).

قال الحاكمُ أبو عبد الله في (علوم الحديث): هو حديثٌ صحيحٌ، وأشار أبو داود في سننهِ إلى أنَّه "مُرسل".

ومنها: أنَّهم أئمتُنا وأسلافُنا، كالوالدين لنا، وأجدى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دارُ قرارنا، وأنصحُ لنا فيما هو أعودُ علينا، فيقبحُ بنا أنْ نجهلهُم، وأن نهملَ معرفتهم.

ومنها: أن يكون العملُ والتّرجيحُ بقول أَعلمهم وأَورعهم إذا تعارضت أقوالُهم على ما أوضحته في "مقدّمة شرحِ المهذّبِ"[١].

ومنها: بيانُ مصنّفاتهم وما لها من الجلالة وعدمها، والتّنبيه على مراتبها، وفي ذلك إرشادٌ للطالب إلى تحصيلها، وتعريفٌ له بما يعتمدُه منها، وتحذيرُه ممّا يخافُ من الاعتزاز به، وغير ذلك، وبالله التّوفيق»[٢].

مجالسُـــــهم مِثـــــلُ الرِّيـــــاضِ أنيقـــــةٌ

لقـدْ طـابَ منهـا الـرِّيحُ واللَّـونُ والطَّعـمُ

وفي هذا الكلامُ لهؤلاء الأئمةِ عبرةٌ وفائدةٌ، وغنيةٌ وكفايةٌ، واللهُ يَرزقنا للسَّير على سيرهم، والقفوِ لأثرهم في الخير ونشرِ العلمِ، والدِّفاعِ عن السنّةِ وتعظيمِها، واحترامِ العلمِ وأهلِه، إنَّـه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.



---

(١) –وقد طبعت مستقلة بحمد اللهِ، وهي مقدمة نفيسة في أدب الطالب والفتوى، وقد نقل عنها الشيخ القاسمي وأكثر في كتابه "الفتوى في الإسلام".

(٢)– تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٠-١١)

[أبوّة العالِم ووجوب احترامِها]

إنَّ العالمَ له حقٌ على الطّالبِ كحقِّ الوالدِ على ولدِه، وعقوقُ العالِمِ من الطّالب؛ كعقوقِ الولدِ لوالدِه، بل هو أشدُّ وأعظمُ.

وأصل هذه الأبوَّةِ مُشتقةٌ من الحديثِ النَّبوي الصَّحيحِ، فعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالدِ أعلِّمُكم، فإذا أتى أحدُكم الغائطَ فلا يستقبلَ القِبلةَ، ولا يَستدبرها، ولا يَستطبّ بيمينه**»[١].

والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ، ولهم حقٌّ في الاحترام والتّبجيلِ، واحترامُهم من احترام ما يحملونه من العلم، وتعظيمهم -التّعظيم الشرعيّ-، من تعظيم اللهِ ورسولِه ﷺ. ففي "سنن أبي داود"، بسندهِ عن أبي موسى الأشعريِّ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ من إجلالِ اللهِ إكرامَ ذي الشّيبةِ المسلمِ، وحاملِ القرآنِ غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرَامَ ذي السّلطانِ المُقْسِطِ**»[٢].

---

(١)- رواه أبو داود في "سننه" (٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٥)، والنسائي في "المجتبى" (٤٠)، وابن ماجه في "سننه" (٣١٢) و (٣١٣).
وهو في "مسند أحمد" (٧٣٦٨)، و"صحيح ابن حبان" (١٤٣١) و (١٤٤٠).

(٢)- السنن (٤٨٤٣)، هو عند البيهقي في "السنن" (٨/ ١٦٣)، وفي "الشعب" (٢٦٨٥) و (١٠٩٨٦)، وفي "الآداب" (٤٣) من طريق المصنف، بهذا الإسناد.
وأخرجه موقوفًا على أبي موسى: البخاري في "الأدب المفرد" (٣٥٧) عن بشر ابن محمد، عن عبد الله بن حمران به.
وأخرجه كذلك موقوفًا على أبي موسى أبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص٩٠)، وابن أبي =

وقال عبَّاد أبو محمد البصري: «توسَّعُ المجالسُ لثلاثةٍ: لحاملِ القرآنِ، ولحاملِ الحديثِ، ولذي الشّيبةِ في الإسلام»(١).

قال شيخ الإسلام طيَّب اللهُ ثراه: «فيجبُ على المسلمينَ -بعد موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ- مُوَالَاةُ المؤمنين كما نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ خصوصًا العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلةِ النَّجومِ، يُهْتَدَى بهم في ظلماتِ البرِ والبحر، وقد أجمعَ المسلمونَ على هدايتِهم ودرايتِهم.

إذ كل أمةٍ -قبل مَبْعَثِ نبيِّنا محمد ﷺ- فعلماؤها شِرَارُهَا، إلا المسلمين فإنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ؛ فإنَّهم خُلَفَاءُ الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سُنَّتِهِ. بهم قام الْكِتَابُ، وبه قاموا، وبهم نطق الْكِتَابُ وبه نطقوا»(٢).

وقد وصَّى أهلُ العلمِ بتعظيم حُرمةِ العالِمِ، ووجوبِ احترامِه كاحترام الأب، كما قال يحيى بن معاذ الرَّازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلماءُ أرأَفُ بأمَّةِ محمّد ﷺ من آبائهم وأمهاتِهم؛ لأنَّهم يحفظونهم من نارِ الآخرةِ وأهوالِها، وآباؤُهم وأمَّهاتُهم يحفظونَهم من الدُّنيا وآفاتُها»(٣).

ولله دَرُّ الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي حينما قال: «ولعلَّ بعض مَن يَنظر فيما سطَّرناه، ويقفُ على ما لكتابنا هذا ضمناه يلحقُ سيء الظنّ بنا، ويرى أنَّا عمدنا للطَّعن على مَن تقدمنا، وإظهار العيبِ لكبراء شيوخنا وعلماءِ سَلفنا،

= شيبة (١٠/ ٥٥١)، و(١٢/ ٢٢١)، كما في تحقيق السنن، ط: الرسالة.

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٤٤).

(٢) – رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٨).

(٣)– تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، لابن العطار (ص٥٧).

وأنَّى يكون ذلك وبهم ذكرنا، وبشعاع ضيائِهم تبصَّرنا، وباقتفائِنا واضح رسومهم تميزنا، وبسلوك سبيلهم عن الهمج تحيَّزنا، وما مثلهم ومثلنا إلَّا ما ذكر أبو عمرو بن العلاءِ فيما أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر المقرِئ أخبرنا أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم حدَّثنا محمّد بن العبّاس اليزيديّ حدثنا الرّياشي عن الأصمعي قال: قال أبو عمرو «ما نحن فيمن مضى إلَّا كبقل في أصول نخلٍ طوالٍ»(١).

***وأذكر بعون اللهِ من نصوص السَّلفِ في التَّنصيص على أبوَّة العالِم وتعظيمِها.**

يذكرُ عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه، قال: «يا بني إسرائيلَ لن تلجوا ملكوتَ السَّماءِ حتى تُولدوا مرَّتين».

قال ابن القيّم: سمعتُ شيخ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر ذلك، ويُفسِّره بأنَّ الولادةَ نوعان:

أحدُهما: هذه المعروفةُ.

والثَّانية: ولادةُ القلبِ والرُّوحِ، وخروجُهما من مشيمة النَّفسِ وظلمةِ الطّبعِ.

قال: وهذه الولادةُ لما كانت بسبب الرَّسولِ كان كالأبِ للمؤمنين، وقد قرأ أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [النبيُّ أَولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم].

قال: ومعنى هذه الآيةِ والقراءةِ في قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ إذ ثبوتُ أمومةِ أزواجِه لهم فرعٌ عن ثبوت أبوَّته.

---

(١)– موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ١٢-١٣).

قال: «فالشَّيخُ والمعلِّمُ والمؤدِّبُ أبُ الرُّوحِ، والوالدُ أبُ الجسمِ»(١).

وكان الحافظُ السّخاوي رَحِمَهُ اللهُ، **يقول:** «ولا شكَّ أنَّه بمنزلةِ الوالدِ وأعظم! وإجلالُه من إجلال العلمِ، وإنَّما النَّاس بشيوخهم فإذا ذهب الشَّيوخُ فمع مَن العيشُ»(٢).

وقال الإمام النوويُّ الدمشقيُّ، عن أبي العباس بن سريج: «وهو أحدُ أجدادِنا في سلسلة التّفقُّه»(٣).

وقال: «أئمتُنا وأسلافُنا، كالوالدين لنا، وأجدى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دارُ قرارِنا، وأنصحُ لنا فيما هو أعَوَد علينا، فيقبحُ بنا أن نجهلهم وأن نهمل معرفتهم»(٤).

وقال العلَّامةُ المناوي المصري: «أبو الإفادةِ أقوى من أبي الولادةِ»(٥).

وقيل للإسكندر: «إنَّك تُعظِّمُ مؤدِّبك أكثرَ تعظيمك والدكَ!».

فقال: «لأنَّ أبي كان سبب حياتي الفانيةِ، ومؤدِّبي هو سببُ حياتي الباقيةِ».

وفي روايةٍ: «لأنَّ أبي كان سببَ حياتي، ومؤدِّبي سبب تجويدِ حياتي».

وفي روايةٍ: «لأنَّ أبي كان سببَ كوني، ومؤدِّبي كان سبب نُطقي».

---

(١)- مدارج السالكين (٣/ ٦٩-٧٠).

(٢)- انظر: فتح المغيث (٢/ ٢٩٢)، في "ذكر آدب طالب الحديث"، و "الآداب الشرعيَّة" لابن مفلح (٢/ ١٤٦).

(٣)- المجموع شرح المهذب (١/ ١٥٦).

(٤)- تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١).

(٥)- فيض القدير، ذكره في شرح حديث (٤١١١) (٢/ ٥٧٠)، ط: المكتبة التجارية.

وقال أبو زكريا الصيمري: «لو قيل لي هذا لقلت: لأنَّ أبي كان قضى وطرًا بالطّبيعة التي اختلفت بالكون والفسادِ، ومؤدِّبي أفادني العقلَ الذي به انطلقتُ إلى ما ليس فيه كونٌ ولا فسادٌ»(١).

وقال نجمُ الدِّين، أبو العبّاس المعروف بابن قُدامة (ت ٦٨٩هـ): «وعلى المتعلِّمِ أن يلقي زمامَه إلى المعلِّم، إلقاءَ المريض زمامَه إلى الطّبيب؛ فيتواضعُ له، ويبالغُ في خدمته»(٢).

وقال برهانُ الإسلام الزرنوجي الحنفيّ: «فإنَّ مَن علَّمك حرفًا واحدًا ممَّا تَحتاجُ إليه في الدِّين فهو **أبوك** في الدِّين»(٣).

وذكر الحافظُ ابن حجر في ترجمة: "إبراهيمَ بن الفضل الأصبهاني"، فقال: «انكشفَ أمرُه بعد ذلك؛ ولحقَه شؤمُ الكذبِ، وعقوقُ المشايخِ؛ حتى صار آيَة في الكذب»(٤).

فتأمّل قوله: (عقوقُ المشايخِ)، فحذاري يا طالبَ العلمِ من هذا العقوقِ، ومن هذا الخلق السيء.

وقال أبو سهل الصعلوكيّ: «عقوقُ الوالدين يمحوها الاستغفارُ، وعقوقُ

---

(١)- الملل والنحل، الشهرستاني (٢/ ١٩٦-١٩٧).

(٢)- مختصر منهاج القاصدين (ص٢٢).

(٣)- انظر: تعليم المتعلم طريق العلم، "فصل: في تعظيم العلم وأهله" (ص٧٩)، ط: المكتب الإسلامي، وانظر: "إفادة الطالب الألمعي بخلاصة تعليم المتعلم للزرنوجي".

(٤)- لسان الميزان (١/ ٩٠)، ط: مؤسسة العلمي للمطبوعات.

الأستاذين لا يمحوها شيءٌ»(١).

لـيس اليتـيمُ الـذي قـد مـات والـدُه إنَّ اليتـيمَ يتـيمُ العلـم والأدبِ[٢]

وذُكِر أنَّ أسدًا قال: «إنِّي لأدعو اللهَ عزَّ وجلَّ لعلي بن زياد -التّونسي- مع والديّ، لأنَّـه أوَّل مَن تعلمتُ العلمَ عليه»[٣].

وأكَّد على حقّ هذ الأبوَّة وأشادَ بها الشّيخ بكر، فقال كما في "حليته": "وكما لا يليقُ أن تقولَ لوالدك ذي الأبوّة الطّينيّةِ: "يا فلان" أو: "يا والدي فلان" فلا يجملُ بك مع شيخِك.

والتزم توقيرَ المجلسِ، وإظهارَ السُّرورِ من الدرس والإفادةِ به.

وإذا بدا لك خطأٌ من الشَّيخ، أو وهمٌ فلا يسقطُه ذلك من عينك، فإنَّه سببٌ لحرمانك من علمِه، ومَن ذا الذي يَنجو من الخطأ سالمًا؟ واحذر أن تُمارس معه ما يَضجره، ومنه ما يُسمِّيه المولدون: "حرب الأعصابِ"، بمعنى: امتحان الشَّيخِ على القدرة العلميَّةِ والتَّحمُّلِ.

وإذا بدا لك الانتقال إلى شيخٍ آخر، فاستأذِنه بذلك؛ فإنَّه أَدعى لحرمته، وأملكُ لقلبه في محبَّتِك والعطف عليك.

إلى آخر جملةٍ من الأدب يَعرفها بالطَّبع كلّ موفقٌ مباركٌ وفاء لحقِّ شيخك

---

(١)- طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٧١)، وينظر: "آداب المتعلم" (ص٨٧).

(٢)- الآداب الشرعيَّـة (١/ ٢٢٤).

(٣)- طبقات علماء القيروان (١/ ٢٣٤)، وعلي بن زياد: هو أول من أدخل المغرب «جامع سفيان الثوري» و«موطأ مالك» وفسر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، وهو معلم سحنون. دخل الحجاز والعراق.

في "أبوَّتِه الدِّينيّةِ"، أو ما تَسمِّيه بعض القوانين باسم "الرّضاع الأدبيّ [١] وتسمية بعض العلماءِ له "الأبوَّة الدينيَّة" أليقُ، وتركُه أنسبُ.

واعلم أنَّه بقدر رعايةِ حرمتِه يكون النَّجاحُ والفَلاحُ، وبقدر الفوتِ يكون من علامات الإخفاقِ"[٢].

□□□□

(١)– "مقاصد الشريعة" لعلال الفاسي (ص٣٣).

(٢)– انظر: حلية طالب العلم (ص١٦٢–١٦٣).

[خيرُ الأدبِ]

وخير الأدبِ لطالب العلمِ، التأدُّب والتَّقيد بالآداب الشرعيَّةِ الواردةِ في صحيح السنَّةِ النبويَّةِ والقرآنِ الكريمِ، وكذا ما جاء في الآثار عن السَّلفِ الصَّالح.

عن عبد الله بن عمرو يَرويه عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَن لم يرحَمْ صَغيرَنا، ويَعرِفْ حقَّ كبيرِنا، فليسَ منَّا**»(١).

وفي "الصَّحيحين" عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لا يَقبض العِلمَ انتزاعًا يَنتزعُه من العباد؛ ولكن يَقبضُ العِلمَ بقبض العلماءِ، حتى إذا لم يبقِ عالِمًا اتخذ النَّاسُ رؤوسًا جهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير عِلمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا**»(٢). وللحديث شواهدٌ كثيرةٌ.

قال الخطابيُّ: "قد أعلم رسول الله ﷺ أنَّ آفةَ العِلمِ ذهابُ أهلِه، وانتحالُ الجهَّالِ وترأُسهم على النَّاس باسمه، وحذَّر النَّاسَ أن يَقتدوا بمن كان من أهل

---

(١)- أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٤٣) واللفظ له، وأخرجه البيهقي في "الآداب" (٤٢) من طريق المصنف، عن ابن السرح، به، والحميدي (٥٨٦)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٨/ ٥٢٧) والبخاري في "الأدب المفرد" (٣٥٤).

قلت: وتوقير الكبير ومعرفة حقه يدخله فيه العالم من باب أولى.

وليعلم بأنَّ الدين يقوم على الأخلاق والآداب، كما يقوم على التوحيد والعبادات، وهذا الأشياء الأربعة من جمعها، فقد جمَّع خصال الدين، وكان -بعون الله- من السابقين.

(٢)- رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) واللفظ للبخاري.

هذه الصِّفةِ، وأخبرَ أنَّهم ضلَّالٌ مضلُّون"(١).

وعن ابن أبي مليكة قال: «كاد الخيران أن يُهلكا أبو بكر وعمر ﵄؛ رفعا أصواتَهما عند النبيِّ ﷺ حين قَدِم عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع. وأشارَ الآخرُ برجلٍ آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمَه فقال أبو بكر لعمر: «ما أردتَ إلَّا خِلافي، قال: ما أردتُ خلافَك»، فارتفعَت أصواتُهما في ذلك فأنزلَ الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآية، قال ابن الزُّبير: فما كان عمر يُسْمِعْ رسولَ اللهِ ﷺ بعد هذه الآيةِ حتى يَستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر»(٢).

وهذا الأدبُ بحمد الله قد استخدمَه الطلابُ مع الشُّيوخ فلله الحمد هذه السنة النبويَّة طبَّقها أهلُ الحديث على وجه الخصوص مع شُيوخهم وعُلمائهم، كما سيمرُّ معك بعون اللهِ تعالى.

عن أنس بن مالك، قال: «كان بَابُ رسولِ اللهِ ﷺ يُقْرَعُ بالأظافير»(٣). وهذا

---

(١)– العزلة، "باب في فساد الخاصة وما جاء في علماء السوء وذكر آفاتهم" (ص٢٠٨)، ط: ابن كثير.

(٢)– أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤١٠٩)، و(٤٥٦٤)، وأخرجه الترمذي (٤/ ١٨٥)، وعنده تصريح عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير حدثه به، وحسنه، وأحمد (٤/ ٦)، والطبري (٢٦/ ١١٩)، وفيه قول نافع حدثني ابن أبي مليكة عن ابن الزبير فعلم اتصال الحديث كما أشار إليه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢١٢)، كما في "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص١٩٨).

(٣)– أخرجه، البخاري في "الأدب المفرد" (١٠٨٠) وفي "التاريخ" (١ / ٢٢٨)، وأبو نعيم في "أخبار أصفهان" (٢ / ١١٠ و ٣٦٥)، والخطيب في "الجامع" (٢٢٤)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٢٨٠٢): "رواه البزار، وفيه ضرار بن صرد وهو ضعيف". وانظر: الصحيحة (٢٠٩٢).

=

أدبُ الطَّالبِ مَع شيخهِ، وأدبُ الصَّحابةِ مع معلمِهِم رسولُ اللهِ ﷺ.

وكان ﷺ يقول: «**أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأدِيبي**»(١). وهذا يدلُّ على أنَّ مجالسَ رسول اللهِ ﷺ مجالس علمٍ وأدبٍ، وأدبُ نبيِّنا أدبٌ ربَّانيٌّ ﷺ.

وليعلم المسلمُ وطالبُ العِلمِ على الخصوص بإنَّ ميزانَ الأعمالِ، ومنبعَ الأخلاقِ؛ إنَّما يكمنُ في سيرته وهديِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، فينبغي للمسلم أن يَشتغلَ ويُجاهدَ نفسه بذلك قولًا وفعلًا؛ ليكون عَملُه مقبولًا، وسعيُه مباركًا مشكورًا.

قال أمير المؤمنين سفيان بن عيينة: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو الميزانُ الأكبرُ، فعليه تعرض الأشياءُ، على خلقه وسيرتِه وهديِه، فما وافقَها فهو الحقُّ، وما خالفَها فهو الباطلُ»(٢).

=

قال العراقي في "ألفيته" (١١٠-١١١)

"لَكِنْ حَدِيثُ " كَانَ بَابُ الْمُصْطَفَى... يُقْرَعُ بِالْأَظْفَارِ "مِمَّا وُقِفَا
حُكْمًا لَدَى الْحَاكِمِ وَالْخَطِيبِ... وَالرَّفْعُ عِنْدَ الشَّيْخِ ذُو تَصْوِيبِ"

قال السخاوي في "فتح المغيث" (١/ ٢١١): "لكن حديث كان باب ﷺ (يقرع) من الصحابة (بالأظفار) تأدبًا وإجلالًا، كما عرف ذلك منهم في حقه..

(١)- قال الشيخ ناصر الدين في "الضعيفة" (١/ ١٧٣)، "قال ابن تيمية في "مجموعة الرسائل الكبرى" (٢/ ٣٣٦): معناه صحيح؛ ولكن لا يعرف له إسناد ثابت، وأيده السخاوي والسيوطي فراجع " كشف الخفاء" (١/ ٧٠).

قلت: وراجع في شرحِ "فيض القدير" للعلامة المناوي، وسوف تجد شيئًا يطيب الخاطر (١/ ٢٢٤).

(٢)- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/ ٧٩)، و"تذكرة السامع والمتكلم في آدب العالم والمتعلم" لابن جماعة (ص٣١-٣٢)، ط: دار البشائر.

وسوف أذكر لك نماذجًا من أقوالهم في خصوص التقيد بالآثار:

=

ويروى عن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: «إنَّ من حقِّ العالِم عليك أن تُسلِّم على القومِ عامَّةً وتَخصّه بالتَّحيةِ، وأن تَجلسَ أمامَه، ولا تُشيرَ عنده بيدك، ولا تغمزنَّ بعينك، ولا تكثرَ عليه السُّؤالَ، ولا تُعينه فى الجواب، ولا تُلحَّ عليه إذا كسلَ، ولا تُراجعه إذا امتنعَ، ولا تأخذَ بثوبه إذا نهضَ، ولا تُفشي له سرًّا، ولا تَغتابنَّ عنده أحدًا، ولا تَطلبنَّ عثرتَه، وإن زلَّ قبلت مَعذرته، ولا تقولنَّ له: سمعتُ فلانًا يقول كذا، ولا أنَّ فلانًا يقول خلافَك، ولا تَصفنَّ عندَه عالِمًا، ولا تعرض من طول صحبتِه، ولا ترفع نفسَك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقتَ القومَ إليها، فإنَّما هو بمنزلة النَّخلةِ تنتظر متى يَسقط عليك منها شيءٌ»(١).

=

-قال سفيان الثوري: «إنَّما العلم كله بالآثار» الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٦٣).

-وقال: «إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثرٍ فافعل» ذم الكلام وأهله (١/ ١٨١).

-وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «ندور مع السنَّةِ حيثُ دارت» شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٧١).

-وعن عامر بن يساف يقول: سمعت الأوزاعي يقول: «إذا بلغك عن رسول الله ﷺ، فإيَّاك يا عامر، أن تقول بغيره فإنَّ رسول الله ﷺ كان مبلغًا عن الله تبارك وتعالى». المدخل للبيهقي (ص٢٠٠).

-وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: «ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين» جامع بيان العلم، برقم (١٨٠٥)، وذمُّ التأويل لابن قدامة (٢١).

-عن ابن سيرين، قال: «كانوا يرون أنه على الطريق ما كان على الأثر» سنن الدارمي (١/ ٢٥١).

والأقوال في هذا الخصوص كثيرة، وليس المقام هنا بمقام توسع وإكثار؛ ولكن هذه نبذة لمن أراد النفع بها، والله من وراء القصد.

(١)– مختصر منهاج القاصدين (ص٢٢).

۞وهذه النَّصيحةُ التَّربويَّةُ من أجمع الكلامِ وأفضلِه في أدب التَّعاملِ مع الأستاذِ والشَّيخِ،

ولو أراد شارحًا أن يَشرحها لشرحها في كتابٍ لطيفٍ مفيدٍ، وهي ممَّا ينبغي للطَّالب أن يَحفظها بلسانه، ويُطبِّقها بجوارحه وأركانِه في الواقع تطبيقًا شرعيًّا وعمليًّا، ويعتقدَها بقلبِه وجنانِه.

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **في قوله:** ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] «علِّموهم، وأدِّبوهم»(١). وهذا دليلٌ على أنَّ أهم مصادر الأدبِ هي الكتاب والسنَّةِ، وهي منْ مهامْ ربِّ الأسرةِ، وكلّ مربٍّ ومعلمٍ.

قال أميرُ المؤمنين في التَّابعين ابن شهاب الزُّهري رَحِمَهُ اللَّهُ(ت١٢٤هـ): «إنَّ هذا العِلمَ أدبُ اللهِ الذي أدَّبَ به نبيَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأدَّب به النبيُّ ﷺ أمَّتَه، أمانة اللهِ إلى رسولِه ليؤدِّيه على ما أُدي إليه، فمَن سمع عِلمًا فليجعله إمامَه وحجَّة فيما بينه وبين اللهِ تعالى»(٢).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من نصّب نفسه للنَّاسِ إمامًا فعليه أنْ يبدأ بتعليمِ نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرتهِ قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحقُّ بالإجلالِ من معلمِ النَّاسِ ومؤدبهم»(٣).

قال ابن المبارك: «طلبتُ الأدبَ ثلاثينَ سنةٍ، وطلبتُ العلمَ عشرينَ سنةٍ كانوا يطلبون الأدب، ثم العلم.

---

(١)– تفسير ابن جرير (٢٣/ ١٠٣).

(٢)– "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" (ص٢١٣) و"الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ١٢٠).

(٣) –ربيع الأبرار (٤/ ٢١).

وقيل لهُ بالشامِ: إلى كم تطلب العلم؟

فقال: أرجو أنْ تروني فيه إلى إنْ أموت، أليس يُقال له: يستغفر له كلَّ شيءٍ حتى الحيتان في الماء، فلهذا متروك؟»(١).

وقال الإمامُ إبراهيمُ الحربي: «ينبغي للرَّجلِ إذا سمِع شيئًا من أدبِ رسولِ الله ﷺ أنْ يتمسَّك بهِ»(٢).

وعن زياد بن أيُّوب، يقول: سمعتُ بشر بن الحارث يقول: «يا أصحابَ الحديثِ أدُّوا زكاةَ الحديثِ.

قيل وكيفَ نؤدِّي زكاةَ الحديثِ؟

قال: اعمَلوا من كلِّ مائتي حديثٍ سمعتموها بخمسة أحاديث»(٣).

وقال أبو النَّضر الفقيه: سمعتُ البوشنجي يقول: «مَن أرادَ العِلمَ والفِقه بغير أدبٍ، فقد اقتحمَ أنْ يكذبَ على اللهِ ورسولِه»(٤).

---

(١) -طبقات القراء (١/ ٤٤٦).

(٢)- سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٥٨).

(٣)- الإرشاد في معرفة علماء الحديث لأبي يعلى الخليلي (٢/ ٨٦٧)، وفي "الجامع" للخطيب (١/ ٨٩) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «يا حملة العلم، اعملوا به، فإنَّما العالم من عمل بما علم، ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقًا، فيباهي بعضهم بعضًا، حتى أنَّ أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل».

(٤)- سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٨٦) والبوشجني: أحد أئمة أصحاب مالك. وفي "الجامع" للخطيب (١/ ٩٠) قال سفيان ابن عيينة: «إنمَّا منزلة الذي يطلب العلم ينتفع به بمنزلة العبد يطلب كل شيء يرضي سيده، يطلب التحبب إليه، والتقرب إليه والمنزلة عنده؛ =

وقال الفرَّاء: «أدبُ النَّفسِ، ثمَّ أدبُ الدَّرسِ»(١).

وقال عبد الله بن المبارك: «إذا وُصِف لي رجلٌ له علمُ الأولين والآخرين لا أتأسفُ على فوتِ لقائِه، وإذا سمعتُ رجلًا له أدبُ النَّفس أتمنى لقاءَه، وأتأسفُ على فوتِهِ»(٢).

وقال الكمال عبد الرَّحمن بن محمد الأنباريّ عن ابن الشَّجري: «لا يكادُ يتكلَّم في مجلسه بكلمةٍ إلَّا وتتضمَّنُ أدبَ نفسٍ أو أدبَ درسٍ، ولقد اختصمَ إليه علويان، فقال أحدُهما: قال لي: كذا وكذا.

قال: يا بني احتمِل، فإنَّ الاحتمالَ قبرُ المعايِب»(٣).

وقال حسن الصَّائغُ: حدَّثنا الكُديمي قال: خرجتُ أنا وابن المديني والشّاذكوني نتنزَّه، وكان الأميرُ قد منعَ من ذلك، فكما قعدنا جاء وأخذنا، وكنتُ أصغَرهم، فبطَحُوني، فقلت: أيُّها الأميرُ! اسمع مني: حدَّثنا الحُميدي، حدَّثنا سُفيان، عن عَمْرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ارْحَموا مَنْ في الأرضِ يَرْحَمْكُمْ منْ في السَّماء" قال: أَعِدْه، فأعدتُه، فقال: أتحفظُ مثلَ هذا وتخرجُ تتنزَّه**»(٤).

=

لئلا يجد عنده شيئًا يكرهه».

(١)– تاريخ بغداد (٦/ ٣٥٣)، والجامع (١/ ٣٠٣) وفي "تاج العروس" (٢/ ١٢) قال ابن السيد البطليوسي: «الأدب: أدب النَّفس والدرس».

(٢) –الآداب الشرعية (٣/ ٥٥٢).

(٣)– سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٥-١٩٦).

(٤)– طبقات علماء الحديث (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، وانظر تخريجه في "سير أعلام النبلاء" (١٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

ومرَّ شريكُ القاضي بالمستنير بن عمرو النخعي، فجلس إليه، فقال: يا أبا عبد الله، مَن أدَّبك؟ قال: أدَّبتني نفسي والله، وُلدت بخراسان ببخارى فحملني ابن عمٍّ لنا حتى طرحَني عند بني عمٍّ لي بنهرِ صرصر، فكنتُ أجلس إلى معلمٍ لهم فعلقَ بقلبي تعلّم القرآنِ فجئتُ إلى شيخهم، فقلت: يا عمَّاه، الذي كنت تُجري عليّ ههنا أجرِه عليّ بالكوفة؛ أعرف بها السنّة وقومي، ففعل.

قال: فكنتُ بالكوفة أضربُ اللَّبنَ وأبيعُه، وأشتَري دفاترَ وطروسًا، فأكتبُ فيها العِلمَ والحديثَ، ثمَّ طلبت الفِقهَ فبلغتُ ما ترى.

فقال المستنيرُ بن عمرو لولده: «سمعتُم قولَ ابن عمِّكم، وقد **أكثرتُ عليكم في الأدبِ ولا أراكُم تُفلحون فيه، فليؤدِّب كلَّ رجلٍ منكم نفسَه، فمَنْ أحسنَ فلها، ومَنْ أساءَ فعليها**»(١).

وذكر أبو نعيم في "حليته"، قال: «وتسفَّه رجلٌ على حمدون فسكتَ، وقال يا أخي! لو نَقصتني كلّ نقصٍ لم تَنقصني كنقصي عندي، ثمَّ قال: تَسفَّه رجلٌ على إسحاقَ الحنظليّ فاحتملَه، وقال: لأيّ شيءٍ تعلَّمنا العِلمَ»(٢).

وهكذا يَنبغي على طالب العِلمِ أن يَتحلَّى بالأخلاق السّلفيّةِ، والعوائد الحميدةِ المرضيةِ، والصّفاتِ المجيدةِ النَّقيّةِ؛ متنزِّهًا عن دَنِيءِ المكاسبِ(٣)**، وما**

---

(١)– تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٤).

(٢)– حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٢) بتصرف.

(٣)– قال الماوردي (ص٨٣) في أدب العلماء كما في "أدب الدنيا": "ومن آدابهم: نزاهة النفس عن شبه المكاسب، والقناعة بالميسور عن كدِّ المطالب، فإنَّ شبهة المكسب إثم، وكد الطلب ذل، والأجر أجدر به من الإثم، والعز أليق به من الذل" أهـ.

وقال عبدان الأهوازي: سمعت أبا داود السجستاني يقول: أنا لا أحدث عن أبي الأشعث.

=

يخرمُ بالمروءةِ[١]**، ويَقدحُ بالعدالة الشرعيَّة.**

عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **قال:** «إذا تعلَّمتُم العِلمَ فاكظموا عليه[٢]، ولا تخلطُوه بضحكٍ وباطلٍ؛ فتمجه القلوب».

قال الحافظُ أبو بكر الخطيب البغداديّ في "درَّته المصنفة في أخلاق أهلِ

=

قلت: لم؟

قال: لأنَّه كان يعلم المجان المجون، كان مجان بالبصرة يصرون صرر الدراهم يطرحونه على الطريق، ويجلسون ناحية، فإذا مر يعني رجلا بصرة أراد أن يأخذها صاحوا ضعها ليخجل الرجل، فعلم أبو الأشعث المارة بالبصرة: هيئوا صرر زجاج كصررهم، فإذا مررتم بصررهم فأردتم أخذها فصاحوا بكم، فاطرحوا صرر الزجاج الذي معكم، وخذوا صرر الدراهم، ففعلوا. فأنا لا أحدث عنه لهذا" كما في "تهذيب الكمال" (١/ ٤٨٩)، وقال الحافظ ابن حجر في "التقريب" (ص٩٩) «وطَعن أبو داود في مروءته».

(١)– وممَّا يذكر في ترجمة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح المسند، كما حكاه عنه وراقه قائلًا عنه "ما توليت شراء شيء قط، ولا بيعه كنت آمر إنسانًا فيشتري لي قيل له، ولم؟ قال: فيه الزيادة والنقصان والتخليط" كما في " هدي الساري مقدمة فتح الباري" لابن حجر العسقلاني (٨٦٤/ ١) ط: الدار العالميَّة.

قلت: ما فعله الإمام البخاري هو أكمل في الهيبة، وأعظم في النفوس.

وما أحسن قول الزنجاني في شرح (الوجيز): "المروءة يرجع في معرفتها إلى العرف، فلا تتعلق بمجرد الشرع، وأنت تعلم أن الأمور العرفية قلما تضبط، بل هي تختلف باختلاف الأشخاص والبلدان، فكم من بلد جرت عادة أهله بمباشرة أمور لو باشرها غيرهم لعد خرما للمروءة.

وفي الجملة رعاية مناهج الشرع وآدابه، والاهتداء بالسلف، والاقتداء بهم أمر واجب الرعاية "، نقله السخاوي في "شرح الألفية".

(٢)– يعني: احفظوا أنفسكم، واتسموا بالوقار.

الحديثِ" عقب الأثرِ: «يجبُ على طالبِ الحديثِ أنْ يتجنَّبَ: اللَّعبَ، والعبثَ، والتبذُّلَ في المجالس، بالسُّخفِ، والضّحكِ، والقَهقهةِ، وكثرةِ التَّنادرِ، وإدمان المزاحِ والإكثارِ منه، فإنَّما يُستجازُ من المزاح بيسيرِه ونادرِه وطريفِه، والذي لا يخرجُ عن حدِّ الأدبِ وطريقةِ العِلمِ، فأمَّا مُتصلُه وفاحشُه وسخيفُه، وما أوغرَ منه الصُّدور، وجلبَ الشرَّ، فإنَّه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضّحكِ يضعُ من القَدْرِ، ويزيلُ المروءةَ»(١).

❑❑❑❑

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٥٦)، وقارنه بأدب الطلب للشوكاني (ص١٧٣).

[منزلةُ الرِّعايةِ وأهمِّيَّتُها لطالب العِلمِ الشَّرعيِّ][١]

وقد تحدَّث جماعةٌ من العلماءِ عنْ منزلةِ الرِّعايةِ وأهميَّتها، وبذلك يُعلَمُ أنَّ طالبَ العِلمِ الحقِّ هو مَنْ جمعَ بين "الرِّوايةِ، والدِّرايةِ، والرِّعايةِ"[٢]. ورواةُ العِلمِ اليوم في زمانِنا كثرٌ، ورعاتُهُ قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ منهم كالغائبِ، وعالِمٍ كالجاهلِ، وحامِلٍ للحديثِ ليس معه منه شيءٌ، ومن هنا يُدركُ كلام السَّلفِ، ويُفهَمُ سبب حثِّهم على الرِّعايةِ كحثِّهم على الرِّواية، ولهذا قال أبو حنيفةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفِ الفقهِ، بإنَّه: «معرفةُ النَّفسِ ما لها وما عليها»[٣]، وهذا التعريفُ إنَّما يساقُ عند أهلِ الدرايةِ، أمَّا في كتبِ الأصولِ فيعرفُ بغيرِ هذا.

وقال الفقيه أبو الحسن الغماري الفاسي (ت٩١٧هـ): «والفقيهُ شيءٌ والمتفقِّهِ شيءٌ، والفقيرُ شيءٌ والمفتقرِ شيءٌ، فالفقيهُ عند أهل الحقِ منْ فقئ الحجابُ عن عينِ قلبِهِ، وصارَ يفقهُ بقلبِهِ عنْ ربهِ –أي يفهم.

---

(١)– ينظر كتابي التعالم أسبابه ومظاهره وعلاجه (ص١٢٠-١٢١) وما بعد وهو غير مطبوع.

(٢)– عن إسماعيل بن يحيى، قال: رآني سفيان وأنا أمازح رجلًا من بني شيبة عند البيت، فتبسمت فالتفت إليَّ فقال: «تبتسم في هذا الموضع إن كان الرجل ليسمع الحديث الواحد فنرى عليه ثلاثة أيام سمته وهديه» كما في "الجامع" (١/ ١٥٧).

قلت أبو إسحاق: فلا يظنُّ ظانٌّ أنَّ العلم مختصر فقط على الرواية، وكذا من يظن أنه فقط رعاية! بل العالم الرباني من جمع بين هذا الثلاثي الذي ذكرنا.

(٣) –تعليم المتعلم للزرنوجي (ص٦٥)، وكتابي "إفادة الطالب الألمعيَّ بخلاصة كتاب تعليم المتعلم للزرنوجيَّ" (ص٩).

فالفقهُ الفهم، وهو على قسمينِ: فقهُ القلبِ، وفقهُ النَّفسِ. فمنْ كان فقهُهُ بقلبِهِ الذي هو محلُ نظرِ رَبِّهِ فهو فقيهٌ، ومنْ كان فقهُهُ بالنَّفسِ فهو المتفقه، واسمُ الفقيهِ في حقِهِ مجازٌ لا حقيقة»(١).

ومنْ نصوص السلف في الرعاية، ما يروى ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قولهِ: «كونوا للعلمِ رعاةً، ولا تكونوا له رواةً، فقد يَرعَوي مَن لا يَروي، ويَروي مَن لا يَرعَوي»(٢).

وعن الحسن قال: «تعلَّموا ما شئتم أن تعلَّموا، فلن يُجازيكم اللهُ على العِلمِ حتى تَعملُوا، فإنَّ السُّفهاءَ همتهم الرِّواية، وإنَّ العلماءَ همتهم الرِّعاية»(٣).

وقال: «لا تكن ممَّن يَجمعُ عِلمَ العلماءِ، وحكمَ الحكماءِ، ويَجري في الحقِّ مجرى السُّفهاءِ»(٤).

وقال سري السّقطي: «اعتزلَ رجلٌ للتعبُّد كان حريصًا على طلبِ عِلمِ الظَّاهرِ، فسألتُه فقال: رأيتُ في النَّومِ قائلًا يقول لي: إلى كم تضيِّعُ العِلمَ ضيَّعَك اللهُ، فقلتُ: إنِّي لأحفظُه، فقال: حِفظُ العِلمِ العملُ به، فتركتُ الطَّلبَ وأقبلتُ على العمل»(٥).

---

(١) –انظر: رسالة بيان غربة الإسلام للمصنف (ص٤٢) ط: الكتب العلمية.

(٢)– أدب الدنيا والدين (ص٦٨)، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٧/ ٢٦٢)، وإسناده ضعيف.

(٣)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٩١)، واقتضاء العلم العمل (ص٣٥)، وروي مرفوعًا ولا يصح.

(٤)– انظر: كتاب "آداب الحسن البصري" لابن الجوزي (ص٤٨).

(٥)– الإحياء (١/ ١٢٥)، ولو جمع بينهما كان أفضل.

وقال يوسفُ بن أسباط: «بلغني أنَّ الخضرَ عليهِ السَّلام، قال لموسى عليه السلام لما أرادَ أنْ يفارقَهُ: يا موسى! تعلَّم العلمَ لتعملَ بهِ، ولا تعلَّمه لتحدثَ به»(١).

وقال الشَّيخُ أحمدُ الرّفاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ اشتغلَ بالعِلم كان له معنا سهمان: سهمُ العِلمِ وسهمُ الفقرِ، ولو انقطع عنَّـا بالاشتغالِ فيه»(٢).والمرادُ بسهم الفقرِ: سهمُ السّلوكِ.

-**ومن فوائد الرِّعايةِ**، ما رواهُ أبو نعيم، عن أبي بكر بن أبي سعدان قال: «مَن عمِلَ بعلمِ الرِّوايةِ ورثَ عِلمَ الدِّرايةِ، ومَن عمل بعلمِ الدِّرايةِ ورثَ عِلمَ الرِّعايةِ، ومَن عملَ بعلمِ الرِّعايةِ، هُديَ إلى سبيلِ الحقِّ»(٣).

ولأهميَّةِ الرِّعايةِ تحدَّثَ العُلماءُ عنها، وأفردوا لها مقامًا، كما قال الإمامُ ابن القيِّم في "مدارج السّالكين" عن منزلة "الرِّعاية": «وهي مراعاةُ العِلمِ وحفظُه بالعمل.

ومراعاةُ العملِ بالإحسان والإخلاصِ، وحفظُه من المفسدات.

ومراعاةُ الحالِ بالموافقة، وحفظُه بقطع التَّفريقِ؛ فالرِّعايةُ صيانةٌ وحِفظٌ.

▤ **ومراتبُ العلمِ والعملِ ثلاثةٌ:**

١ -**روايةٌ**: وهي مجرَّد النقلِ وحملِ المرويّ.

---

(١) -المجالسة وجواهر العلم (٦/ ٤٠٠).

(٢)- انظر: ترياق المحبين في سيرة سلطان العارفين (ق٢٢ب).

(٣)- حلية الأولياء (١٠/ ٣٧٧).

٢-ودرايةٌ: وهي فهمُه وتعقلُ معناه.

٣-ورعايةٌ: وهي العملُ بموجب ما عَلِمَه ومقتضاه.

فالنَّقلةُ: همتهم الرِّوايةُ.

والعلماءُ: همتهم الدِّرايةُ.

والعارفون: همتهم الرِّعايةُ.

وقد ذمَّ اللهُ مَن لم يَرعَ ما اختارَه، وابتدعَه من الرُّهبانيَّة حقَّ رعايته، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ ﴾ [الحديد: ٢٧][١].

وقال الحافظُ الألمعي ابن رجب الحنبلي: "والرِّعايةُ هي: القيامُ بحقوق الرِّوايةِ من العمل والتَّعليمِ، **فهي ثمرةُ الدِّرايةِ**.

والحكماءُ هم: أهلُ الحِكمةِ، والحكمةُ هي معرفةُ الدِّين والعمل به كما قاله مالك واللَّيث وغيرهما من السَّلف.

وكذلك ذكره ابن قتيبةَ وغيره[٢]، فالحكماءُ هم خواصُّ العُلَمَاءِ كما كان الفضيل بن عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «العُلَمَاءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ».

وقال له رجلٌ: العُلَمَاءُ ورثةُ الأنبياءِ.

---

(١)- (١/ ٤٤٤) ط: التوفيقية.

(٢)- نقل ابن قدامة في "مختصر منهاج القاصدين" (ص١٩): «الحكمة: العلم والعمل به». وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «لا يكون الرجل حكيمًا حتى يجمع العلم والعمل».

فقال فضيل: الحكماءُ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّمَا قال هذا؛ لأنّه صار كثيرٌ من النَّاس يظنُّ أنَّ العُلَمَاءَ الممدوحين في الشريعةِ يدخل فيهم مَن له لسان علمٍ، وإنْ لم يكن عندَه من حقائقِ الإيمانِ، ومن العملِ بالعلمِ ما يوجب سعادتَه.

فبيَّن الفضيلُ أنَّه لا يدخلُ في مدح اللهِ ورسولِه للعلماءِ إلَّا أهل الحكمةِ، وهم أهلُ الدِّرايةِ والرِّعايةِ»[١].

وقال التَّاج السُبُكِي: «ومنهم -يعني العلماءُ- طائفةٌ صحيحةُ العقائدِ، حَسَنَةُ المعرفةِ لِلْفروع، إلَّا أنَّها لم تَرعَ جانبَ اللهِ حقَّ الرِّعايةِ، فكان عِلمها وبالًا عليها في الحقيقةِ»[٢].

ولما سُئِل الإمامُ مالك متى سمعتَ من أيوب السّختياني؟

قال: «حجّ حجَّتين فكنتُ أرمقه ولا أسمعُ منه، غير أنَّه إذا جاء ذُكرُ النبيّ ﷺ بكى حتى أرحمه، فلمَّا رأيتُ منه ما رأيتُ، وإجلاله النبيّ ﷺ كتبتُ عنه»[٣].

وقال إسحاق بن محمد: سمعت مالك بن أنس، يقول: «كُنَّا ند خُلُ على أ يُّوب السختيا نِيِّ، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتَّى نرحمهُ»[٤].

وقال الضَّحاكُ بنْ مزاحم: «كان أوّلوكم يتعلَّمون الورعَ، ويأتي عليكم زمانٌ

(١)– مجموع رسائل ابن رجب "مقدمة تشتمل على أنَّ جميع الرسل كان دينهم الإسلام" (٢/ ٥٦٩-٥٧٠)، و(٤/ ٣٦٥) ط: أولاد الشيخ.

(٢)– معيد النعم ومبيد النقم (ص٦٧).

(٣)– التعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) (١/ ٣٤٧).

(٤) –حلية الأولياء (٣/ ٤).

يُتعلَّم فيه الكلامَ، وكان أوّلوكم أخوف ما يكونون من الموتِ أصحّ ما يكونون»(١).

وذُكِر معروف عند الإمام أحمد، فقيل: قصيرُ العلمِ، فقال: «أمسِكْ، وهل يُرادُ من العلمِ إلَّا ما وصلَ إليهِ معْروفٌ»(٢).

وقال ابن الجوزيّ عنْ شيخِه الحافظِ أبي البركاتِ الأنماطي: «كنتُ أقرأ عليه وهو يَبكي، فاستفدتُ ببكائهِ أكثرَ منْ استفادتي بروايتِه، وكان على طريقةِ السَّلفِ، انتفعتُ بهِ ما لم أنتفعْ بغيرِه»(٣).

وقال الخواص(٤): «ليس العِلمُ بكثرةِ الرِّوايةِ، وإنَّما العالِمُ مَن اتَّبعَ العِلمَ واستعملَه، واقتدى بالسُّنن، وإن كان قليلَ العِلمِ»(٥).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «فباللهِ؛ قلْ لي: هل يكونَ طالبٌ مَن خدم السنَّةَ يتهاون بالصَّلوات، أو يتعانى تلك القاذورات؟ لا واللهِ، ولا ممَّن اتَّقى اللهَ.

وأنحس من ذلك محدِّثٌ يكذِّبُ في حديثه، ويَختلقُ الفشارات -الهذيان-، فإن تَرقت همَّتُه المقيتة إلى الكذبِ في النَّقل، والتَّزويرِ في الطِّباق، فقد استراحَ، وطرس الطّلبة على اسمِه ورسمِه: صورةً ومعنى.

---

(١)- الزهد لابن المبارك (١/ ٢٠٧)، وهو في "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (٩٢)، وفي "الزهد" أيضًا عن الضحاكِ قال: «أدركتهم وما يتعلمون إلا الورع».
(٢)- سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٠)، ترجمة: "معروف الكرخي".
(٣)- تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ٥٣).
(٤) -سليمان الخواص، من العابدين الكبار بالشام. قال الأوزاعي: «لو كان في السلف، لكان علامة». وانظر ترجمته في "السير" (٨/ ١٧٨-١٧٩).
(٥)- اقتضاء العلم (٢٤) (ص٣٠).

وإن تعانى سرقة الأجزاءِ، أو كشط الأوقافِ، فهذا لصٌّ بِسمتِ محدِّثٍ، وإن جعل الطَّلب له مأكلةً ودكَّانًا؛ فالأعمالُ بالنيَّات، ولا قوَّة إلَّا بالله»(١).

وقال بقيَّةُ، عن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومحمَّد بن عجلان: «ما شيءٌ أشدّ على الشَّيطانِ من عالمٍ حَليمٍ، إن تكلَّمَ تكلَّمَ بعلمٍ وإن سكتَ سكتَ بحلمٍ، يقول الشَّيطان: انظروا إليهِ كلامُه أشدُّ عليَّ منْ سُكُوتِه»(٢).

إنَّنا بحاجةٍ في زماننا هذا إلى التَّصفية قبل التَّربيةِ، فهي سبيلٌ في صناعةِ طالبِ علمٍ، وإرفادِ السَّاحةِ العلميَّة بكوادرٍ جديدةٍ تعيدُ أمجادَ السَّلفِ في جميعِ مجالاتِ الحياةِ بإذنِ الله تعالى، وقد ألَّفَ العلماءُ كتبًا في التَّربية(٣) والتَّزكيةِ في

---

(١)- وصية الذهبي لمحمد بن رافع السلامي (ص١٧-١٨) مكتبة العمرين العلمية.

(٢)- جامع بيان العلم (١/ ٥٠٦).

(٣)- وقد ألف جماعة من العلماء، كتبًا تتعلق بأمور الآدب كالإمام البخاري له كتاب في الآدب سمَّاه "الأدب المفرد".

ومن السلف من له مؤلفات في نصيحة الولد؛ فقد ألَّف الغزالي رسالة سماها "أيُّها الولد" ولابن الجوزي رسالة عنوانها "لفتة الكبد في نصيحة الولد"، ومنها "الوصية الولدية" للباجي.

ومنها: كتاب "الأدب" لأبي بكر ابن أبي شيبة، و"أدب النفس" للحكيم الترمذي، و"آداب النفوس" للحارث المحاسبي و"أدب الدنيا والدين" لأبي الحسن الماوردي الشافعي، و"الآداب" للبيهقي.

وللشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظمٌ في ذلك، ولابن عبد القوي منظومة في الآدب، ولأبي الفتح البستي نظم في ذلك، وكذا لأبي إسحاق الألبيري نظم في الأدب.

ومنهم من جمع وصاية وحكم لقمان، على اختلاف حجمها.

ومن الكتب التي حوت موضوع الآدب؛ كتب الصحاح والسنن والمسانيد والتي لا يخلو باب من أبوابها أو أحاديثها من ذكر الآدب.

=

العمومِ، ومن اخصرها وأهمّها لطالبِ العِلمِ في هذا الجانبِ لا سيَّمـا في زمانِنا، كتابُ "التَّصفية والتَّربية" للشيخ المحدث ناصر الدين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجبُ على أهل العِلمِ أن يتولّوا تربيةَ النَّشءِ المسلمِ الجديدِ على ضوءِ ما ثبتَ في الكتاب والسنَّةِ، فلا يجوز أن ندعَ النَّاسَ على ما توارثوهُ من مفاهيمِ وأخطاء، بعضها باطلٌ قطعًا باتِّفاق الأئمَّةِ، وبعضها مختلفٌ فيه وله وجهٌ من النَّظرِ والاجتهادِ والرَّأي»(١) أهـ.

❑ **وخلاصـةُ ما يمكن قولُه:**

أنَّ قوامَ التَّصفيةِ: «بالعلم وبتنقيةِ الإسلامِ من كلّ دخيلٍ وشائبٍ»(٢).

وقوام التَّربيةِ(٣): العملُ بهذا العِلمِ، فعن عبد الله بن يزيد قال: سمعتُ زيادًا أبا عمر يقول: «بلغني أنَّ عيسى ابن مريمَ، قال: إنَّه ليس بنافعك أن تعلمَ، ما لم تعلم، ولما تَعمل بما قد علمتَ؛ إنَّ كثرةَ العِلمِ لا تزيدُ إلَّا كِبرًا إذا لم تعمَل به»(٤) وهذا منهجُ السَّلفِ مع طلَّابهم، واللهُ تعالى أعلمُ.

= ومن الكتب التي جمعت آداب طالب العلم والحديث خاصة، "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي، و"جامع بيان العلم" لابن عبد البر، و"تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعة الكناني، وغيرهم كثير بحمد الله، والله أعلم.

(١)– انظر: التصفية والتربية وحاجة المسلمين لها، لفضيلة الشيخ المحدث محمد بن ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٣٠)، ط: المكتبة الإسلامية.

(٢)– قال ابن قدامة في "مختصر منهاج القاصدين" (ص٢٦) "إنَّ صور الأعمال قريبة سهلة، وإنَّما التعب فى تصفيتها".

(٣)– قال أبو حامد الغزالي في "نصيحة أيها الولد": "ومعنى التربية: يشبه الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسن نباته، ويكمل ريعُه".

(٤)– ما بين المعقوفين ذكره الإمام أحمد في "الزهـد" (ص٩٨).

[أهميَّةُ الأدبِ والحثِّ عليه]

وللأدبِ أَهميَّةٌ بالِغةٌ، فهو عنوانُ طالبِ العِلمِ وسِمتُه التي يتميَّزُ بها عن سائرِ النَّاسِ، وبه يرفعُ اللهُ مقامه، ويجلُّ مِنْ مكانهِ، ومَنْ أُكرِم بالأدبِ فقد أُعطيَ حظَّه من الخيرِ أجمعه، وقد نصَّ أهلُ العلمِ سلفًا وخلفًا على أهميَّة الأدبِ والحثِّ عليه، والنَّدبةِ إلى التَّحلِّي به، كما قال ابن مفلح: «ويُسنُّ أن يتعلَّم الأَدب والسَّمْت والفَضل والحيَاء وحُسن السِّيرةِ شَرعًا وعُرفًا»[١]، ونُقِل في ذلك الإجماع[٢]، ولو لم ينقُل فتداولُه بين النَّاسِ على مرِّ العصورِ دليلٌ كافٍ وشافٍ في بيان فضلِه والتّقيُّد به، وقد كان السَّلفُ يدعون اللهَ أن يَرزقَهم مع العِلمِ الإيمان؛ لأنَّهما قُرناء ويُتمِّمُ بعضهم البعضَ، ويُروى ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه يقول في دعائه: «اللهمَّ زِدني إيمانًا وفِقهًا ويَقينًا وعِلمًا»[٣].

ولأهلِ العلمِ فيما يَتعلَّقُ بالأدبِ والحثِّ عليهِ، أقولٌ كثيرة، وأحوال غريبةٌ فاذكرُ منها، غيضٌ لطيفٌ، وكلام ظريفٌ، واللهُ المعين.

---

(١)– الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٤١٨).

(٢)– ينظر: الإقناع في مسائل الإجماع (٢/ ٣٠٧)، وقال أبو جعفر الطحاوي في "الطحاويَّة" (ص٨٢) " وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوءٍ فهو على غير السبيل".

(٣)– أخرجه: (سعيد بن منصور وعبد بن حميد)، كما في "الدر المنثور" (٥/ ٦٠٢).

قال الإمامُ المحدِّثُ المسند، المجاهدُ العابدُ الزَّاهدُ عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن تهاوَن بالأدبِ عُوقِب بحرمان السُّنن، ومَن تَهاوَن بالسُّنن عُوقِب بحرمانِ الفرائضِ، ومَن تهاوَن بالفرائض عُوقِب بحرمان المعرفةِ»(١).

فتأمّل التَّهاون بالآداب يُؤدي إلى التَّهاون بالفرائض، والتَّهاونُ في الفرائض يكون سببًا في الخروج من الدِّين.

وقيل: «الأدبُ في العمل علامةُ قبولِ العملِ»(٢).

وعن ابن المباركِ، قال: قال لي مخلد بن الحسين(٣): «نحنُ إلى كثيرٍ من الأدب، أحوجُ منَّا إلى كثيرٍ من الحديث»(٤).

قال ابن حبان: «والأدب صاحب في الغربة، ومؤنس في القلة، وزين في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل على المروءة، ومن استفاد الأدب في حداثته انتفع به في كبره؛ لأن من غرس فسيلًا يوشك أن يأكل رطبها»(٥).

وقال حبيبُ الجلاب: «سألتُ ابن المبارك: ما خيرُ ما أُعطي الإنسانُ؟

---

(١)– رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠١٧) (٤/ ٥٥٩).

(٢)– مدارج السالكين (٢/ ٤٠٢).

(٣) –مخلد بن الحسين أبو محمد الأزدي الإمام، الكبير، شيخ الثغر، أبو محمد الأزدي، المهلبي، البصري، ثم المصيصي.

حدث عنه: موسى بن عقبة، وهشام بن حسان، ويونس بن يزيد، والأوزاعي، وعدة.

وعنه: حجاج بن محمد، والحسن بن الربيع، وأبو صالح محبوب الفراء، والمسيب بن واضح، وموسى بن أيوب، وآخرون. السير (٩/ ٢٣٦).

(٤)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٨٠).

(٥) –روضة العقلاء (ص٢٢٠).

قال: غريزةُ عقلٍ.

قلت: فإن لم يَكن؟

قال: حسنُ أدبٍ.

قلت: فإن لم يَكن؟

قال: أخٌ شفيقٌ يَستشيرُه.

قلت: فإن لم يكن؟

قال: صمتٌ طويلٌ.

قلت: فإن لم يكن؟

قال: موتٌ عاجِلٌ»(١).

وقال العلَّامةُ علي الشبراملسي صاحب "الحاشية على نهاية المحتاجِ": «قيراطٌ من الأدبِ، خيرٌ من أربعةٍ وعشرينَ قيراطًا من العِلم»(٢).

وقال أبو الخيرِ الأقطع: «لن يصفو قلبكَ إلَّا بتصحيحِ النيَّةِ لله، ولن يصفو بدنُك إلَّا بخدمة أولياءِ اللهِ»(٣).

وقال: «ما بلغ أحدٌ إلى حالةٍ شريفةٍ إلَّا بملازمة الموافقةِ، ومعانقةِ الأدبِ، وأداءِ الفرائضِ، وصحبةِ الصَّالحين، وخدمةِ الفقراءِ الصَّادقين»(٤) أهـ.

---

(١)- السير (٨/ ٣٩٨)، وتاريخ دمشق (٣٢/ ٥٤٩).

(٢)- خلاصة الأثر (٣/ ١٧٥).

(٣)- وأحق النَّاس بصفة الولاية العلماء، كما ورد ذلك عن الإمامين أبي حنيفة والشافعي.

(٤)- ينظر: "سير السلف الصالحين" (ص٩٢٥) وهو لِقِوام السنة (ت: ٥٣٥هـ).

وقال أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرَّازي: «بالأدبِ تتفهّم العِلمَ، وبالعلم يصحّ لك العملُ، وبالعملِ تنالُ الحكمةَ، وبالحكمةِ تفهمُ الزُّهدَ، وبالزُّهدِ تتركُ الدُّنيا، وترغبُ في الآخرة، وبذلك تنالُ رضى اللهِ تعالى»(١).

وقيلَ: سمعَ حكيمٌ رجلًا يقول: «أنا غريبٌ، فقال: الغريبُ من لا أدبَ له»(٢).

وكان يُقال: «أربعةٌ يسودُ بها العبدُ: العلمُ، والأدبُ، والفِقهُ، والأمانةُ»(٣).

وعن شريح بن مسلمة قال: سمعتُ عبد الله بن المباركِ يقول: «كاد الأدبُ أنْ يكون ثُلثي الدِّين»(٤).

وأنشدَ الكريزي لابن حبَّان البَستي:

أكـرِم بـذي أدبٍ أكـرِم بـذي حسـبٍ ... فإنَّمـا العـزمُ في الأحسـاب والأدبِ

والنَّـاسُ صـنفان ذو عقـلٍ وذو أدبٍ ... كمعـدن الفضَّـةِ البيضـاءِ والـذَّهبِ

وسـائرُ النَّـاسِ مـن بـين الـورى همـجٌ ... كـانوا مـوالي أو كـانوا مـن العَـرب(٥)

وقالت حكماءُ الهندِ: «لا ظفرَ مع بغيٍ، ولا صحَّةَ مع نهمٍ، ولا ثناءَ مع كِبرٍ، ولا صداقةَ مع خبٍّ(٦)، ولا شرفَ مع سوءِ أدبٍ»(٧).

---

(١)– السير للذهبي (١٤/ ٢٥٠).

(٢)– انظر: كتاب "لطائف الأخبار وتذكر أولي الأبصار"، للقاضي أبي القاسم علي التنوخي (ت٤٤٧هـ) (ص١٣٧-١٤١)، ط: عالم الكتب.

(٣)– لباب الآدب (ص٢٢٨).

(٤)– صفة الصفوة (٢/ ٣٣٠).

(٥)– روضة العقلاء (ص٢١٩).

(٦)– الخب، بالكسر والفتح: الخداع والخبث والغش.

(٧)– سير أعلام النبلاء (١١/ ١٣٤).

وقال شبيب بن شيبة: «اطلبوا العِلمَ بالأدب، فإنَّه دليلٌ على المروءة، وزيادةٌ في العقل، وصاحبٌ في الغربة»(١).

وعن عيسى بن حمّاد زغبة قال: سمعتُ اللَّيثَ بن سعد، يقول: «وقد أشرفَ على أصحاب الحديثِ، فرأى منهم شيئًا، فقال: ما هذا؟ أنتم إلى يَسيرٍ من الأدب أحوج منكم إلى كثيرٍ من العلم»(٢).

وقال شاعرٌ:

لكلِّ شيءٍ حسن زينةٌ وزينةُ العالِم حسنُ الأدبِ
قد يَشرفُ المرءُ بآدابهِ فينا وإنْ كان وضيع النَّسبِ

وقال آخرٌ:

ذخائرُ المالِ لا تَبقى على أحدٍ والعلمُ تذخرُه يَبقى على الأبدِ
والمرءُ يَبلغُ بالآداب منزلةً يذلُّ فيها له ذو المالِ والعقدِ(٣)

وقال الحجاوي: «مثل الإيمانِ كمثل بلدةٍ لها خمسُ حصونٍ: **الأوَّلُ**: من ذَهبٍ. **والثَّاني**: من فضَّةٍ. **والثَّالثُ**: من حديدٍ. **والرَّابعُ**: من آجر. **والخامسُ**: من لبنٍ.

فما زالَ أهلُ الحصنِ متعاهدين حصنُ اللَّبن لا يطمعُ العدوّ في الثَّاني، فإذا أهملُوا ذلك طمعوا في الحصنِ الثَّاني، ثمَّ الثَّالث حتى تخربَ الحصونُ كلّها.

فكذلك الإيمانُ في خمسِ حصونٍ: اليقينُ، ثمَّ الإخلاصُ، ثمَّ أداءُ الفرائضِ،

(١)– تاريخ بغداد (١٠/ ٣٧٧).
(٢)– شرف أصحاب الحديث (ص١٤١-١٤٢)، ط: دار البصيرة.
(٣)– معجم الأدباء (١/ ٢٠).

ثمَّ السُّنن، ثمَّ حفظُ الآدابِ، فما دام يحفظُ الآدابَ ويتعاهدها فالشَّيطانُ لا يَطمعُ... فيه، وإذا تركَ الآدابَ طمع الشَّيطانُ في السُّنن، ثمَّ في الفرائضِ، ثمَّ في الإخلاصِ، ثمَّ في اليَقينِ»[١].

❐❐❐❐

(١)– غذاء الألباب للسفاريني (١/ ٢٦٨) ورواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما (١/ ٣١٠).

[تعظيمُ مكانةِ العُلماءِ وكيفيّةِ التعاملِ معهم]

وليعلم طالبَ العلمِ بأنَّ تعظيم العلماءِ الرَّبانيين من تعظيم ربِّ العالمين، وإجلالِهم من إجلالِ اللهِ تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهذا الخطابُ موجَّهٌ لمعشر أهلِ الإيمانِ على وجوه الخصوصِ، كما قال عبدُ الله ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعِها سمعَك، فإنَّه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ يُنهى عنه»(١).

وفي هذا الخطابِ الرَّبانيِّ أمرٌ (بطاعة اللهِ، وطاعة رسوله ﷺ، وطاعةِ أهلِ العلمِ الرَّبانيين **أصحابِ الخشيةِ**)(٢).

---

(١)– تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣١٧) ومن طريقه ابن كثير في "تفسيره" (١/ ٣٧٤).

(٢) –قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :«ليس العلم عن كثرة الحديث، إنَّما العلم خشية الله» كما في "جامع بيان العلم" (١/ ٧٥٨).

وعن ابن عون، قال: سأل الحسن عن رجل، فقال رجل: يا أبا سعيد الرجل الفقيه؟ قال: «وهل رأيت بعينيك فقيها قط؟ إنَّما الفقيهُ الذي يخشى الله عز وجل» كما " الفقيه والمتفقه" (١٠٦١).

وعن الفضيل بن عياض ، يقول: «إنَّما الفقيه الذي أنطقته الخشية وأسكتته الخشية، إن قال: قال بالكتاب والسنة، وإن سكت سكت بالكتاب والسنة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده ورده إلى عالمه» كما في "إبطال الحيل" (ص٣١).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال في قوله الله: «﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ يعني: أَهْلَ الفِقْهِ وَالدِّين، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ يعني: الْعُلَمَاءُ.

قال الحافظ ابن كثير: «والظاهرُ -والله أعلم- أنَّ الْآيَةَ في جميعِ أولي الأمرِ من الأمراءِ والعلماء»(١).

وقال ابن قيِّم الجوزيَّة: «وقد اختلفَت الرِّوايةُ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في أولي الأمرِ، وعنه فيهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى **روايتان:**

إحداهما: أنَّهم العلماءُ.

والثَّانية: أنَّهم الأمراءُ.

والقولان ثابتان عن الصَّحابة في تفسيرِ الآيةِ، والصَّحيحُ أنَّها متناولةٌ للصِّنفين جميعًا؛ فإنَّ العلماءَ والأمراءَ وُلاةُ الأمرِ الذي بعث اللهُ به رسولَه، فإنَّ العلماءَ وُلاته حفظًا وبيانًا، وذبًّا عنه، وردًّا على مَن أَلحدَ فيه وزاغَ عنه، وقد وكَّلَهم اللهُ بذلك فقال تعالى: ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ فيالَها من وكالةٍ أوجبت طاعتهم، والانتهاءَ إلى أمرهم، وكون النَّاس تبعًا لهم»(٢).

---

(١) -تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥) ط: طيبة.

(٢)- الرسالة التبوكية (ص٤١)، وبهذا قال الجصاص الحنفي (ت٣٧٠هـ) في "أحكام القرآن" (٢/ ٢٦٤) «ويجوز أنْ يكونوا جميعًا مرادين بالآية؛ لأنَّ الاسم يتناولهم جميعًا؛ لأنَّ الأمراء يلون أمر تدبير الجيوش والسرايا وقتال العدو، والعلماء يلون حفظ الشريعة وما يجوز مما لا يجوز».

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال**: «ليس من أخلاق المؤمنِ التّملقَ، ولا الحسدَ، إلَّا في طلب العِلمِ»(١).

يعني هذه الأخلاقُ مذمومةٌ لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يتصف بها فضلًا عن طالبِ العلم؛ ولكن لا حرجَ إذا اتصفَ بها الطالبُ، فالمرادُ بالحسدِ هنا حسد الغِبطة، ومن بابِ المجازِ يقالُ له حسد، وإنْ كان في الحقيقيةِ لا يحُمد الحسدَ؛ بل هو من أعظمِ الذنوبِ، وأكبر الكبائرِ عند الله، ونصوصُ الشرعِ وافرةٌ في ذمه والتحذير منه، وقد قيل: «لا يخلو جسد من حسد» ولعلَّ هذا من قبيل هذا القول؛ وعلى هذا فالتملق والحسد أخلاق تذم في العموم، وتحبب في الخصوص لطالب العلم.

وعن أبي معاوية الضرير قال: «أكلتُ مع الرَّشيدِ يومًا، ثمَّ صبَّ على يدي رجل لا أَعرفُه.

ثمَّ قال الرَّشيد: تدري مَن يَصبّ عليك؟ قلت: لا. قال: أنا، إجلالًا للعلم»(٢).

---

(١)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٢١١)، وروي مرفوعًا أخرجه البيهقي في "الشعب" (٤٥٢٢)، وقال عقبه: "الحسن بن دينار ضعيف بمرة، وكذلك خصيب بن جحدر والله أعلم، وروي من وجه آخر ضعيف"، وعزاه السيوطي في "الجامع" إليه (٣/ ٦١)، وهو في "جامع بيان العلم" لابن عبد البر (١/ ٥٢٣).

وذكر ابن منظور في "لسان العرب" (١٠/ ٣٤٧) "الملق: الود واللطف الشديد، وأصله التليين وقيل: الملق شدة لطف الود، وقيل: الترفق والمداراة، والمعنيان متقاربان.

وقال: وبالتحريك الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي".

(٢)- تاريخ الإسلام (٤/ ١٢٢٣).

[وقفاتٌ مُهِمَّة]

***النَّصوصُ الشرعيَّةُ في معرفة قدرِ أهلِ العلمِ الرَّبانيين**[١]**،وتعظيمهم كثيرةٌ ووافرةٌ**؛ وإنَّما أردت أن أسوقَ بعضًا من الأثار والصُّورِ في ذلك التَّعظيمِ، ممَّا يكون ذلك من خير المحفِّزات، وأفضلُ الدَّوافع لسلوك هذا الخلقِ القويمِ -بإذن الله تعالى-. فكما قيل: «الطِّباعُ سرَّاقة»[٢]، و «الطَّبعُ لصٌّ»[٣].

إنَّ السعيدَ لمنْ لهُ من غيرِهِ عظةٌ ... وفي التَّجاربِ تحكيمٌ ومُعتبَرُ

وأسألُ اللهَ بلسان الحالِ والمقالِ أن يَرزقنا القبولَ، وأن يَجعل ما نَكتبه يَخرج من القلب فيَقع في القلب، وأن يُزهرَ ويُثمرَ ويُؤتي أُكلَه ونَفعَه -بعون اللهِ وتوفيقه-، إنَّ ربي سميعٌ قديرٌ، ولله درُّ سوار حينما قال: «كلامُ القلبِ يَقرعُ القلبَ، وكلامُ اللّسان يمرُّ على القلبِ صفحًا».

---

(١)- فالعالم الحقيقي هو العالم الرباني، وليس العلم بكثرة الصراخ، ولا بشدة الطعن والمراء، وإنما العالم صاحب الخشية والذكر، القائم بحق العلم، درايةً وروايةً ورعاية، معظمًا لأمر الله، مجتنبًا لنهيه، بصيرة في علمه، حكيمًا في تعليمه؛ وذُكر معروف عند الإمام أحمد، فقيل: قصير العلم.

فقال: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف". "سير أعلام النبلاء، (٩/ ٣٤٠) ترجمة: "معروف الكرخي".

(٢)- قاله ابن جماعة كما في "تذكرة السامع والمتكلم" (ص٩٤).

(٣)- قاله ابن الجوزي كما في "تلبيس إبليس" (ص١٤٦)، وابن قدامة كما في "مختصر منهاج القاصدين" (ص١٥٣).

وقال زياد بن أبي سفيان: «إذا خرج الكَلامُ من القلبِ وقعَ في القلبِ، وإذا خرجَ من اللِّسان لم يجاوز الآذان»(١).

وإذا طلبتَ العلمَ فاعلم أنَّه عبءٌ لتنظر أيّ عبءٍ تحمل
وإذا علمتَ بأنَّه مُتفاضلٌ فاشغل فؤادَك بالذي هو أفضلُ(٢)

ومن التَّعظيم والاحترامِ الذي يَنبغي أن يقدَّمَ لأهل العلمِ، إكرامهم عن المسألةِ، واعطائهم الكفايةَ، وهذا التَّكريمُ وقع في سير المحدثين كثيرًا، وقد بوَّب على ذلك الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديثِ»، فقال: «مَن جعل من الخلفاء في بيتِ المالِ نصيبًا لأصحاب الحديثِ"، **ومن التَّعظيم أَذكرُ**(٣):

قال مالك: «كتب أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنَّه قد قرأ القرآنَ عندنا عددُ كذا وكذا، فكتب إليه عمر: أن افرض لهم من بيت المالِ، فلمَّا كان في العامِ الثَّاني كتبَ إليه أنَّه قد قرأ القرآنَ عندنا عددٌ كثيرٌ، لأكثر من ذلك؛ فكتب إليه عمر: أن امحهم من الدِّيوان؛ فإنِّي أخاف إن يُسرعَ النَّاس في القرآن أن يَتفقَّهوا في الدِّين فيتأوَّلوه على غير تأويلِه»(٤).

---

(١)- أوردهما ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١٢٥٥) (١٢٥٦) (١/ ٧٠٠).

(٢)- معجم الأدباء (٦/ ٢٨٣١).

(٣) -ولي كتاب بعون " رفع العناء في إيضاح واجب الحكام وعلاقتهم بالعلماء". (رسالة شرعية فيها فصول مهمة) وذكرت فيها شواهد كثيرة حول كفاية أهل العلم وعونهم. يسر الله تمامها.

(٤)- مفتاح دار السعادة (١/ ٣٣٤)، وينظر: في "الطبقات" لابن سعد (٩/ ١٣٠) مختصرا.

وانظر: "الجامع" لمعمر (١١/ ٢١٧)، و"المعرفة والتاريخ" (١/ ٥١٦)، و"المستدرك" (٣/ ٥٤٠)، و"السنة" لعبد الله بن أحمد (١/ ١٣٥).

وروى بقيّة، عن أبي بكر بن مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى وَالي حمص[١] «انظر الذين نَصبوا أنفسَهم للفِقه، وحبسوها في المسجدِ عن طلب الدُّنيا فأعط كلّ رجلٍ منهم مائة دينارٍ من بيت المال»[٢].

وبنحوهِ عن يحيى بن أبي كثير، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمّاله: «أن أَجْرُوا على طلبة العلمِ الرِّزق، وفرِّغوهم للطّلب»[٣].

وأوصى مسلمة بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما قال سعيد بن عبد العزيز: بثلثِ مالِه لطلابِ الأدبِ، وقال: «إنَّها صناعة مجفو أهلها"[٤].

وعن يحيى بن صالح الوحاظي: «ما رأيتُ رجلًا أكبرَ نفسًا من إسماعيل بن عيّاش، كنَّا إذا أتيناهُ إلى مزرعتِه لا يَرضى لنا إلَّا بالخروف والخبيصِ»[٥].

وقال عبد الرحمن بن الحكم بن بشير بن سلمان، عن أبيه: كنَّا ندخلُ على عبيد الله بن الوليد الوصافي فلا يَدعنا حتى نأكلَ ويقسمَ علينا، وربَّما سألَه إنسان عن حديثٍ فيقول: «إن أكلتَ وإلَّا لم أحدِّثك»[٦].

---

(١)– وترجم الذهبي في "سيره" (٢٠/ ٢٢٩-٢٣٠)، لملك من ملوك دمشق وهو "أنر معين الدين الطغتكيني" فقال: "أمير سائس، رئيس شجاع، مهيب، فحل الرأي، دبر دولة أولاد أستاذه.

وكان يحب العلماء والصلحاء، ويبذل المال، وله مواقف مشهودة، وغزو كثير، وكان حسن الديانة"، وهكذا هم القادة بحق يحبون العلماء ويكرمونهم.

(٢)– تاريخ الإسلام (٣/ ٧١٤).

(٣)– جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٤٧).

(٤)– تاريخ الإسلام (٣/ ٣١٢).

(٥)– انظر: تهذيب الكمال (٣/ ١٧٠).

(٦)– المصدر نفسه (١٧/ ١٧٥).

وقال أبو نعيم عن الحافظ أحمد بن مهدي بن رستم: «كان صاحبَ أموالٍ، أنفقَ على أهلِ العلمِ ثلاثَ مئة ألفِ درهم»[١].

وقال المسيب بن واضح[٢]: «أرسلَ ابن المباركِ إلى أبي بكر بن عيَّاشٍ[٣] أربعة آلافِ درهم، فقال: سدَّ بها فتنةَ القومِ عنك»[٤].

وممَّا يدخلُ في هذا البابِ، مَن امتنعَ من المحدِّثين مِن أخذِ الأجرةِ على تحديثِهِ النَّاس، كما قال السَّخاوي: «ومنهم مَن كان يمتنعُ من الأخذ من الغرباء خاصَّةً، فروى السّلفي في "معجم السَّفر"[٥] له من طريق سهل بن بشر الإسفرائيني، قال: اجتمعنا بمصر طبقة من طلبةِ الحديثِ، فقصدنا علي بن منير الخلال، فلم يأذَن لنا في الدُّخول، فجعل عبد العزيز بن علي النّخشبي فاهُ على كوّة بابه، ورفع صوتَه بقوله: قال رسول الله ﷺ: **(مَن سُئِل عن عِلم الحديثِ)**، قال: ففتح البابَ ودخلنَا، فقال: لا أحدِّثُ اليومَ إلَّا مَن وزنَ الذَّهبَ، فأخذ من كلّ مَن حضر من المصريين، ولم يأخذ من الغرباء شيئًا، وكان فقيرًا لم يكن له من الدُّنيا شيءٌ، وهو من الثِّقات»[٦].

---

(١)– طبقات علماء الحديث (٢/ ٢٩٧) وينظر: أخبار أصبهان (١/ ٨٥).

(٢) –الإمام، المحدث، العالم، أبو محمد السلمي، التلمنسي؛ نسبة إلى قرية من قرى حمص، قلت أبو إسحاق: وحاليًا تتبع لإدلب قريبة من معرة النعمان، انظر ترجمته في "السير" للذهبي (١١/ ٤٠٣) ومعجم البلدان (٢/ ٤٤).

(٣) –الإمام القدوة، شيخ الإسلام، الكوفي المقرئ، مولى واصل الأحدب، الأسدي الحناط، عرض القرآن ثلاث مرات على عاصم.

(٤)– سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٠)، ط: الرسالة.

(٥)– معجم السفر (ص١٦٩).

(٦)– فتح المغيث (٢/ ٢٦١)، ط: دار المنهاج.

وعن حبّان بن موسى، قال: «عُوتِبَ ابن المبارك فيما يفرقُ من المال في البلدان دون بلدِه، قال: إنِّي أعرفُ مكان قومٍ لهم فضلٌ وصدقٌ، طلبوا الحديثَ، فأحسنوا طلبه لحاجةِ النَّاس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهُم، ضاعَ عِلمهم، وإن أعنَّاهم، بثُّوا العِلمَ لأمَّة محمَّد ﷺ لا أَعلمُ بعد النُّبوة أفضل من بثِّ العِلمِ»(١).

وأعطى اللّيث ابن لهيعة ألفَ دينارٍ، وأعطى مالكًا ألفَ دينارٍ، وأعطى منصور بن عمّار الواعظ ألفَ دينارٍ، وجارية تسوى ثلاثَ مائة دينارٍ(٢).

وعن سعيد بن عباد المعروف بالمزغلة صاحب سحنون، قال: قال لي سحنون يومًا، وقد خلا معي: «يا سعيدُ، أليس أنا إمامك؟» فقلت: «نعم، أصلحكَ اللهُ» فقال: «أو تقبلُ قولي؟» فقلت: «وكيف لا أقبلُ قولُك ولو لم أقبل قولَك لم أختلف إليك» قال: فقال لي: «هذا قولي ويميني» وحلف لي بالله، وأراني صرَّةً في يدِه، وذكر أنَّ فيها ثلاثينَ دينارًا وقال: «ما هي مالُ سلطانٍ ولا من تاجرٍ ولا من وصيةٍ، وما هي إلَّا من ثمن ثمرةٍ غرستُها بيدي، فخذها تتقوَّ بها على أمرِ آخرتِك ودُنياك» قال: فقلت له: «أنا عنها غَنيٌّ» قال محمّد: «وهو واللهِ كان مُحتاجًا إلى خروبة».قال: فقال لي سحنون: -لَمَّا قلت له إنِّي عنها غَنيٌّ: «فخذها سَلفًا فتتزوَّجَ منها وتُنفقَ، فإنْ رزقكَ اللهُ فيها فردَّها نقبلها منك، وإنْ تعذَّر عليك ردُّها فأنت في حلٍّ»، فقلتُ: «ما كنتُ بالذي أتعجلُ دينًا في ذمَّتي من غيرِ حاجةٍ».

---

(١)– السير (٨/ ٣٨٧)، وتاريخ بغداد (١٠/ ١٦٠).
(٢)– السير (٨/ ١٤٨-١٤٩).

فقال: «فإذا أَبيتَ منْ قبُولِها فلَا تَذكُرها لأحدٍ ما دُمتُ أنا حيًّا»(١).

وختامًا: قال ابن الجوزي في "السر المصون": «وَقد كَانَ لِلعُلَماءِ قدِيمًا حظٌّ مِنْ بَيتِ المالِ يُغنِيهِم، وكَانَ فيهم منْ يَعِيشُ فِي ظلِّ سُلْطانٍ كأَبي عُبَيدٍ معَ ابنِ طاهرٍ، وَالزَّجَّاجِ معَ ابنِ وَهبٍ، ثُمَّ كَانَ للعُلَماءِ مَن يُراعِيهِمْ منْ الْإِخوانِ حتَّى قال ابنُ المبارك: «لولَا فلانٌ وَفُلَانٌ مَا اتَّجَرت»، وَكَانَ يُبْعثُ بِالمالِ إِلَى الفُضَيلِ وَغيرهِم، ثُمَّ قالَ ذلك المعنى فصار أَقوامٌ مِن التُّجَّار يَفتَقدُونَ العُلماء بالزَّكَاةِ فيندفِعُ الزَّمَانُ، وقدْ وَصَلنَا إِلَى زمانٍ تقطَّعَتْ فِيهِ هَذه الْأَسبَابُ حتَّى لو احْتَاجَ الْعَالِمُ فطلبَ لَمْ يُعْطَ(٢)، فَأَولى النَّاسِ بِحِفظِ المالِ وَتَنميةِ اليسيرِ مِنْهُ وَالقناعة بِقَلِيلِهِ توفِيرًا لِحِفظِ الدِّين وَالجاهِ، وَالسَّلامةِ مِن مننِ العوَامّ الأَرَاذلِ العَالِمُ الَّذِي فيهِ دِينٌ ولهُ أنفةٌ منْ الذُّلِّ»(٣).

❑❑❑❑

(١)– طبقات علماء القيروان (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) –وهذا هو زماننا والله المعين.

(٣) –نفس المصدر (١/ ٢١٩).

ومن أسباب البركةِ والرّفعةِ لطالبِ العلمِ في علمِه ووقتِه، وفي حياته وبعد مماتِه.

وتعظيمه لمعلِّمه تعظيمًا شرعيًّا بعيدًا عن التّملُّق والجفاءِ، وعن الغلوّ[١] وسوءِ المعاملةِ والقضاءِ[٢] قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف:١١٥].

قال القرطبيُّ في "تفسيره": «تأدَّبوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان ذلك سبب

---

(١)– وهذا الذهبي لما ذكر سيرة الإمام أحمد في "سيره" (١١/ ٢١١)، وذكر أنَّ رجلًا قال: «نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة» علق الذهبي قائلًا: "هذا غلو لا ينبغي، لكن الباعث له حب ولي الله في الله".

وفي "السير" أيضًا (١٨/ ٤٧٦)، في ذكر ترجمة أبي المعالي الجويني الشافعي «وكانت الطلبة يطوفون في البلد نائحين عليه، مبالغين في الصياح والجزع» وعلق قائلًا: "هذا كان من زي الأعاجم لا من فعل العلماء المتبعين".

(٢)– ومن أسوء ما يجزي الطالب شيخه بإن يتصيد عثراته، ويتتبع عوراته، وكان الشاطبي يقول كما في "الموافقات" (٥/ ١٣٦–١٣٧): «زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليدًا له؛ وذلك لأنهَّا موضوعة على المخالفة للشرع. ولذلك عدت زلة، وإلا فلو كانت معتدًا بها؛ لم يجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها، كما أنه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتا، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين.

ثمَّ قال– ذاكرًا لقول ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ–: "دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال؛ فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا وعسى أن يكون منه زلة، فلأحد أن يحتج بها؟"».

إيمانهم»(١).

قلت: تأدَّبوا معه فرفعَهم اللهُ وأعزَّهم، وهذه عواقبُ الأدبِ ونتائجه.

وعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال**: «من فقهِ الرَّجلِ: ممشاه، ومدخلُه، ومخرجُه، ومجلسُه مع أهل العلمِ»(٢).

وقال الإمام الحسن البصري: «نأتي العلماءَ الذين كانت تقرُّ عيني برؤيتِهِم، والتماس بركةِ مجالسهم، وانتظار فضل دعواتهم، بأبي وأمي هم، ما رأيتُ بعدهم مثلَهُم»(٣).

وقد قيل: «ما وصلَ مَنْ وصل إلَّا بالحرمة -بحرمة العُلماءِ-، وما سقط مَن سقط إلَّا بترك الحرمةِ».

وقيل: «الحرمةُ خيرٌ من الطَّاعة، ألا ترى أنَّ الإنسانَ لا يكفرُ بالمعصية، وإنَّما يكفرُ باستخفافها وبترك الحرمةِ»(٤).

وعن بعض السَّلفِ: «مَن قال لشيخهِ لِمَ؟ لم يُفلِح أبـدًا»(٥).

---

(١)- الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٩٦)، ط: عالم الكتب.

(٢)- حلية الأولياء (١/ ٢١١).

(٣) -أخرجه إياس بن معاوية في "الحلم والعلم" (ص٨٤).

(٤)- ذكرهما الزرنوجي في "تعليم المتعلم" (ص٧٥).

(٥)- ذكره ابن جماعة في "التذكرة" (ص١٠٥)، ط: البشائر.

ومعناه: التعنت في السؤال والتشديد فيه، وليس الاعتراض على العالم إن أخطأ، فالواجب رده بأدب وحلم، والله أعلم.

وتأمل ما جاء في "تذكرة الحفاظ" (١/ ٢٢٣) " قال ابن أبي حاتم أنا أحمد بن عبد الرحمن أنا عمي قال: سئل مالك عن تخليل الأصابع فلم ير ذلك فقلت: يا أبا عبد الله إن عندنا

=

وروى أبو الفضل محمّد بن طاهر المقدسيّ في "المنثور من الحكايات والسُّؤالات"، سمعتُ الفقيهَ أبا محمَّد هياج بن عبيد الحِطِّيني (إمام الحرمِ ومفتيه) يقول: يومٌ لا أرى فيه سعد بن علي الزنجاني لا أعتدُّ أنِّي علمتُ خيرًا.

وكان هياج رَحِمَهُ اللَّهُ يعتمرُ كلّ يوم ثلاث عُمرٍ، ويواصلُ الصَّوم ثلاثةَ أيَّامٍ، ويدرس عدَّة دروسٍ، ومع هذا كلِّه كان يعتقدُ أنَّ نظرَه إلى الشَّيخِ سعد والجلوسَ بين يديه أجلُّ من سائر عملِه»[١].

وبخصوصِ حرمةِ أهل العِلمِ، اذكر نماذجًا ممَّن عوقبَ بسبب طعنِه بأهل العِلمِ والتنقُّص منهم،

يقول الحافظُ ابن عساكر الدمشقيّ: "كان العبدري أحفظُ شيخٍ لقيتُه، وكان فقيهًا داوديًّا[٢]. وسمعتُه وقد ذُكر مالكٌ، فقال: "جِلف جاف؛ ضرب هشام ابن عمّار بالدرّة"، وقرأتُ عليه "الأموال" لأبي عبيد فقال -وقد مرَّ قولٌ لأبي عبيد-: "ما كان إلَّا حمارًا مغفَّلًا لا يعرف الفِقه"، وقيل لي عنه: إنَّه قال في إبراهيم النَّخَعَي: "أعورُ سوء"، فاجتمعنا يومًا عند ابن السمرقنديّ في قراءة كتاب "الكامل" فجاء فيه: "وقال السعدي كذا"، فقال: "يكذبُ ابن عَديّ، إنَّما ذا قولُ إبراهيم الجوزجاني"، فقلت له: "فهو السّعديُّ، فإلى كم نحتمل منك

=

لذلك سنة، أنا الليث وعمرو بن الحارث عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إذا توضأت فخلل أصابع رجليك". فرأيته بعد ذلك يسأل عنه فيأمر بتخليل الأصابع، وقال لي: ما سمعت بهذا قط إلا الآن".

(١)- المنثور (ص٣٠-٣١)، وعزاه إليه الذهبي في "تاريخ الإسلام"، "وفيات/ ٤٧١هـ" (ص٤٧)، وابن مفلح في "الآداب الشرعية" (٢/ ١٣٦).

(٢)- نسبة لداود الظاهري.

سوء الأدبِ؟ تقول في إبراهيم كذا وكذا، وتقول في مالك: جاف، وتقول في أبي عبيد؟! " فغضِب، وأخذتهُ الرَّعدةُ، وقال: "كان ابن الخاضبة والبَرداني وغيرهما يخافونني فآل الأمرُ إلى أن تقول فيَّ هذا؟!" فقال له ابن السمرقنديّ: "هذا بذاك"، فقلت: "إنّما نحترمُك ما احترمتَ الأئمةَ"(١).

وقال الدارقطنيُّ في (أحمد بن كامل القاضي): "كان مُتساهلًا ربَّما حدث من حفظه بما ليس عنده في كتابه وأهلكَه العجبُ، فإنَّه كان يختارُ ولا يضعُ لأحد من العلماء أصلًا" (٢).

وقال الحافظُ الذَّهبي الدمشقيُّ في ترجمة "محمَّد بن ناصر بن محمَّد بن علي بن عمر الحافظ، أبو الفضل السّلامي"، "ذكره ابن السمعاني في "المذيل"، فقال: كان يُحبُّ أن يقعَ في النَّاس.

قال ابن الجوزيّ: وهذا قبيحٌ من أبي سعد، فإنَّ صاحبَ الحديث ما يزالُ يجرحُ ويعدلُ، فإذا قال قائلٌ: إنَّ هذا وقوع في النَّاس دلَّ على أنَّه ليس بمحدثٍ، ولا يعرفُ الجرح من الغيبة، ومذيل ابن السمعاني ما سمَّاه إلَّا ابن ناصر، ولا دلَّه على أحوال الشُّيوخ أحدٌ مثل ابن ناصر، وقد احتجَّ بكلامه في أكثر التَّراجم، فكيف عوّل عليه في الجرحِ والتَّعديلِ، ثمَّ طعن فيه؟ ولكن هذا منسوبٌ إلى تعصب ابن السّمعاني على أصحاب أحمد، ومَن طالعَ كتابَه رأى تعصُّبَه البارد وسوءَ قصده، ولا جرمَ لم يمتع بما سمع، ولا بلغَ مرتبةَ الرِّوايةِ.

قلت –الذهبي–: يا أبا الفرجِ، لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مِثلَه، فإنَّ عليك في هذا الفصلِ مؤاخذاتٌ عديدةٌ، منها: أنَّ أبا سعد لم يقل شيئًا في تجريحِه وتعديلِه،

---

(١)– سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨١).

(٢)– التقييد والإيضاح للعراقي (ص١٦٥).

وإنَّما قال: إنَّه يتكلَّمُ في أعراض النَّاس، ومَن جرحَ وعدَّلَ لم يُسمَّ في عرف أهلِ الحديثِ أنَّه يتكلَّمُ في النَّاس، بل قال ما يجبُ عليه، والرَّجل فقد قال في ابن ناصر عبارتك بعينها التي سرقتَها منه وصبغتَه بها، بل وعامّة ما في كتابك "المنتظم" من سنة نيّف وستِّين وأربعمائة إلى وقتنا هذا من التَّراجم، إنَّما أخذته من "ذيل" الرَّجل، ثمَّ أنت تتفاخَمُ عليه وتتفاججُ، ومَن نظر في كلام ابن ناصر في الجَرح والتَّعديلِ أيضًا عرف عترستَه وتعسُّفَه بعض الأوقات.

ثمَّ تقول: فإذا قال قائلٌ: إنَّ هذا وقوع في النَّاس دلَّ على أنَّه ليس بمحدثٍ، ولا يعرفُ الجرح من الغيبةِ، فالرَّجل قال قولَه، وما تعرض لا إلى جرحٍ ولا غيبةٍ حتى تلزمه بشيءٍ ما قاله، وقد علمَ العالمون بالحديث أنَّه أعلمُ منك بالحديث، والطُّرق، والرِّجال، والتَّاريخ، وما أنت وهو بسواء. وأين مَن أفنى عمرَه في الرِّحلة والفنِّ خاصة، وسمعَ من أربعة آلافِ شيخٍ، ودخلَ الشَّامَ، والحجازَ، والعراقَ، والجبالَ، وخراسانَ، وما وراء النَّهرِ، وسمع في أكثر من مئة مدينةٍ، وصنَّف التَّصانيفَ الكثيرةَ، إلى مَن لم يسمع إلَّا ببغداد، ولا روى إلَّا عن بضعةٍ وثمانين نفسًا؟! فأنت لا يَنبغي أن يُطلقَ عليك اسم الحفظِ باعتبار اصطلاحِنا، بل باعتبار أنَّك ذو قوَّةٍ حافظةٍ، وعلمٍ واسعٍ، وفنونٍ كثيرةٍ، واطلاعٍ عظيمٍ، فغفرَ اللهُ لنا ولك.

ثمَّ تنسبه إلى التعصُّبِ على الحنابلةِ، وإلى سوءِ القصدِ، وهذا -والله- ما ظهر لي من أبي سعد؛ بل والله عقيدتُه في السنَّة أحسن من عقيدتك، فإنَّك يومًا أشعريّ، ويومًا حنبليّ، وتصانيفك تنبِّئ بذلك، فما رأينا الحنابلةَ راضين بعقيدتك ولا الشافعيّةَ، وقد رأيناك أخرجتَ عدَّةَ أحاديث في الموضوعات، ثمَّ

في مواضع أُخر تحتجُّ بها وتُحسِّنُها، فخلِّنا مُساكتة"[١].

فقــل لمــن يــدَّعي في العِلــم فَلســفةً حفظتَ أشياء وغابَت عنك أشياءُ[٢]

قال ابنُ فارس: سمِعْتُ أبا الحسن القَطَّان بعدما علتْ سِنُّه يقول: «كنت حين رحلْتُ أحفظُ مئةَ ألفِ حديثٍ، وأنا اليومَ لا أقومُ على حِفْظ مئةِ حديثٍ، وسمِعْتُه يقول: أُصبتُ ببصري، وأظنُّ أني عُوقِبْت بكثرةِ كلامي أيامَ الرِّحْلةِ»[٣].

قال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ **مُعلقًا**: "قلت: صدقَ واللهِ، فقد كانوا مع حسن القصدِ، وصحَّةِ النيَّةِ غالبًا، يخافون من الكلامِ، وإظهارِ المعرفةِ والفضيلةِ، واليومَ يكثِرونَ الكلامَ مع نقصِ العلمِ، وسوءِ القصدِ.

ثمَّ إنَّ اللهَ يفضحُهم، ويلوحُ جهلُهم وهواهُم واضطرابُهم فيما علموه، فنسألُ اللهَ التَّوفيقَ والإخلاصَ"[٤].

وقال أبو الحارث: سمعتُ أبا عبد الله -الإمامُ أحمد بن حنبل- غيرَ مرَّةٍ يقولُ: ما تكلَّمَ أحدٌ في النَّاس إلَّا سقطَ وذهبَ حديثُه، قد كان بالبصرة رجلٌ يقال له: الأفطسُ كان يَروي عن الأعمش والنَّاس، وكانت له مجالس، وكان صحيحَ الحديثِ، **إلَّا أنَّه كان لا يَسلم على لسانه أحدٌ فذهب حديثُه**، وذكره.

---

(١)– تاريخ الإسلام (١١/ ٩٩١).

(٢)– ديوان أبو نواس (ص٧).

(٣)– ذكره ابن عبد الهادي في "طبقات علماء الحديث" (٣/ ٤٩)، وفي "معجم الأدباء" (١٢/ ٢٢٠ – ٢٢١) و "تذكرة الحفاظ" (٣/ ٨٥٧) "أصبت ببصري، وأظنُّ أنِّي عوقِبتُ بكثرةِ بكاءِ أمي أيام فراقي لها في طلب الحديث والعلم".

(٤)– السير (١٥/ ٤٦٤–٤٦٥).

وقال في روايةِ الأثرم: وذكر الأفطس، واسمه عبد الله بن سلمة قال: «إنمَّا سقطَ بلسانه فليسَ نسمعُ أحدًا يَذكره»(١).

قال أحمدُ بن حنبل: تركوا حديثَه.

قال الذهبيُّ: «كان يَستخفُّ بالأئمة، قال: يكذبُ سفيان، وتكلَّم في غندر».

وقال عن القطان: «ذاك الأحولُ. وكذا سنةُ اللهِ في كلِّ من ازدرى بالعلماء بقيَ حقيرًا»(٢).

وذكر صاحب "تاريخ المراوزة" أنَّ ثمامةَ بن أشرس سعى إلى الواثقِ بأحمد بن نصر المروزي وذكر له أن يُكفِّرَ مَن يُنكر رؤيةَ اللهِ تعالى ومَن يقول: بخلق القرآنِ فاعتصم من بدعة القدريّةِ فقتله، ثمَّ ندم على قَتلِه، وعاتبَ ثمامة وابن داوود وابن الزيات في ذلك وكانوا قد أشاروا عليه بقتلِه، فقال له ابن الزيات: وإن لم يكن قَتلُه صوابًا فقتلني اللهُ تعالى بين الماءِ والنَّارِ.

وقال ابن أبى داود: حبسني اللهُ تعالى في جِلدي إنْ لم يكن قَتلُه صوابًا.

وقال ثمامة: سلَّط اللهُ تعالى عليَّ السُّيوفَ إنْ لم تكن أنت مُصيبًا في قَتلِه.

فاستجابَ اللهُ تعالى دعاء كلّ واحدٍ منهم في نفسه، أمَّا ابن الزّيّات فإنَّه قتل في الحمّام وسقطَ في أثوابه فمات بين الماءِ والنَّارِ، وأمَّا ابن أبى داود فإنَّ المتوكِّلَ رَحِمَهُ اللهُ حبسه فأصابه في حبسه الفالج فبقى في جلده مَحبوسًا بالفالج إلى أنْ ماتَ، وأمَّا ثمامةُ فإنَّه خرجَ إلى مكَّة فرآهُ الخزاعيون بين الصَّفا والمروةَ

---

(١)– الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١٤٢-١٤٣).

(٢)– تاريخ الإسلام (٤/ ١١٣٩).

فنادى رجلٌ منهم، فقال: يا آل خُزاعةَ هذا الذي سعى بصاحبكم أحمد بن فهر وسعى في دَمه فاجتمع عليه بنو خزاعةَ بسيوفهم حتى قَتلوه، ثمَّ اخرجوا جِيفته من الحرمِ فأكلته السِّباعُ خارجًا من الحرم، فكان كما قال الله تعالى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾(١).

وعن محمّد بن فضيل يقول: تناولتُ مرَّةً أحمدَ بن حنبل فوجدتُ في لساني ألَمًا لم أجد القرار، فنمتُ ليلةً فأتاني آتٍ، فقال: «هذا بتناولك الرَّجل الصَّالح، هذا بتناولك الرَّجل الصَّالح، فانتبهتُ، فلم أزل أتوبُ إلى الله تعالى حتَّى سكن».

وعن حنبل بن إسحاق، قال: حدَّثني عمران بن موسى، قال: «دخلتُ على أبي العروقِ الجلَّاد الذي ضرب أحمد لأنظر إليه، فمكثَ خمسةً وأربعين يومًا يَنبحُ كما يَنبحُ الكلبُ»(٢).

وقال الحافظ السخاوي في "الإعلان بالتَّوبيخ لمن ذمَّ التَّأريخ": «وممّن امتحنَ بسبب اطلاقِ لسانه بغير مُستندٍ ولا شبهةٍ أبو شامة أحدُ شيوخ النوويِّ رحمهما الله تعالى فإنَّه مع كونه عالِمًا راسخًا في العِلم مقرئًا محدّثًا لغويًّا يكتبُ الخطَّ المليحَ المتقنَ مع التَّواضع والاطراح والتَّصانيف العدَّة، كان كثيرَ الوقيعةِ في العلماءِ والصُّلحاءِ وأكابر النَّاسِ، والطَّعنِ عليهم، والتنقُّصِ لهم، وذكرِ مَساوِئِهم، وكونه عند نفسِه عظيمًا فصارَ ساقطًا من أعين كثيرٍ من النَّاسِ ممَّن عَلِم منه ذلك، وتكلَّموا فيه، وأدَّى ذلك إلى امتحانه بدخول رَجلين جَليلين عليه

(١)– الفرق بين الفِرق (ص١٥٩).

(٢)– ذكرهما ابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد" (ص٦٤٥– ٦٥٥).

دَارَه في صورةٍ مُستفتيَين فضرباه ضربًا مُبرحًا إلى أن عيلَ صبرُه ولم يغثهُ أحدٌ، بحيث أنشدَ أبياتًا يَستغيثُ فيها بالله عزَّ وجلَّ.

وذُكِر في ترجمةِ الحافظِ الشَّمس أبي العباس محمّد بن موسى بن سند **أنَّه تغيَّر في آخر عمرِه، ونسيَ غالبَ محفوظاتِه حتى القرآن**، وأنَّه قيل: أنَّ ذلك كان عُقوبةً من اللهِ له لكثرة وقِيعتِه في النَّاس.

وقال: بلغني عن الجمال محمّد بن أبي بكر المصريّ أنَّه شاهدَ الجمالَ أبا عبد الله محمّد بن عبد الله ابن أبي بكر الدّعيمي اليمانيّ القاضي الشافعيّ عند موتِه، **وقد اندلعَ لسانه وأسودَّ، وكانوا يرون ذلك بسببِ اعتراضِه ووقيعتِه في النوويّ** رَحِمَهُ اللَّهُ»[١].

ولما ذكر الذهبيُّ في "سيره" عبد الرَّحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، فقال: "الشَّيخُ، الإمامُ، المفسِّرُ، العلَّامةُ، أبو نصر عبد الرَّحيم ابن الإمام شيخ الصوفيَّةِ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري"، ثمَّ قال: "وعظَ ببغداد، وبا**لغَ في التعصُّب للأشاعرة، والغضّ من الحنابلة**، فقامت الفتنةُ على ساقٍ، واشتدَّ الخَطبُ، وشمَّر لذلك أبو سعد أحمد بن محمد الصوفيّ عن ساق الجدِّ، وبلغَ الأمرُ إلى السَّيف، واختبطَت بغداد، وظهرَ مبادرُ البلاءِ، ثمَّ حجَّ ثانيًا، وجلسَ، والفتنةُ تغلي مراجلها، وكتبَ ولاةُ الأمرِ إلى نظام الملك ليطلب أبا نصر بن القشيري إلى الحضرة إطفاءً للنَّائرة، فلما وفدَ عليه، أكرمَه وعظَّمَه، وأشار عليه بالرُّجوع إلى نَيسابور، فرجع، ولزم الطَّريق المستقيمَ، ثمَّ ندب إلى الوعظِ والتَّدريسِ، فأجاب، ثمَّ فتر أمرُه، وضعفَ بدنُه، وأصابَه فالجٌ،

---

(١)– الإعلان بالتوبيخ (ص٦٠)، ط: دار الكتاب العربي، و(ص٢١٠) ط: الصميعي.

فاعتقلَ لسانُه إلَّا عن الذِّكر نحوًا من شهرٍ، وماتَ"(١). فهل هذه الذي حصل له بسبب كلامِه ووقيعتِه في الحنابلةِ، أمَّا أنَّه أمرٌ جرى بالقدَر، اللهُ أعلم، لكن الطعنَ بأهلِ العلمِ عاقبته وخيمة.

تَرَى الْجَلِيسَ يَقُولُ الْحَقَّ تَحْسَبُهُ رُشْدًا وَهَيْهَاتَ فَانْظُرْ مَا بِهِ الْتَبَسَا
صَدِّقْ مَقَالَتَهُ وَاحْذَرْ عَدَاوَتَهُ وَالْبَسْ عليه أمورًا مثلَ ما لبَسا(٢)

وذكر الذهبيُّ في "ترجمة **ابن ناصر السلامي البغدادي**"، قال الشَّيخُ جمالُ الدِّين ابن الجوزي: كان شيخنا ثقَّة، حافظًا، ضابطًا من أهل السنَّةِ، لا مَغمز فيه، تولَّى تَسميعي، سمعتُ بقراءته "مسند أحمد" والكتبَ الكِبارَ، وعنه أخذتُ عِلمَ الحديثِ، وكان كثيرَ الذِّكرِ، سريعَ الدَّمعةِ.

قال السمعاني: كان يُحبُّ أن يقع في النَّاس.

فردَّ ابن الجوزي هذا، وقبَّحَه، وقال: صاحبُ الحديثِ يَجرحُ ويُعدل، أفلا تفرِّقُ يا هذا بين الجرحِ والغيبةِ؟!

ثمَّ قال: وهو قد احتجَّ بكلام ابن ناصر في كثير من التَّراجم في (الذَّيل) له.

ثمَّ بالغَ ابن الجوزي في الحطِّ على أبي سعد، ونسبه إلى التعصُّب الباردِ على الحنابلة، وأنا فما رأيت أبا سعد كذلك، ولا ريبَ أنَّ ابن ناصر يتعسَّفُ في الحطِّ على جماعةٍ من الشُّيوخ، وأبو سعد أعلمُ بالتَّاريخ، وأحفظُ من ابن الجوزي ومن ابن ناصر، وهذا قولُه في ابن ناصر في (الذَّيل)(٣).

---

(١)- سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٢)-تفسير القرطبي (١/ ٣٤٠).

(٣)- سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٦٨)

وعن أحمد بن علي الأبار، قال: «رأيتُ بالأهواز رجلًا قد حفَّ شارِبَه، وأظنُّه قد اشترى كتبًا وتعبَّأَ للفُتيا، فذكروا أصحاب الحديث، فقال: ليسوا بشيءٍ، وليس يَسوون شيئًا، فقلتُ له: أنت لا تحسن تُصلِّي.

قال: أنا؟

قلتُ: نعم.

قلت: إيش تحفظُ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصَّلاةَ ورفعتَ يدَيك؟ فسكتَ.

فقلتُ: فأيش تحفظُ عن رسول الله ﷺ إذا وضعت يدَيك على رُكبتَيك؟ فسكتَ.

قلت: إيش تحفظُ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت؟ فسكتَ!

قلتُ: ما لك لا تتكلَّم؟ ألم أقل لك: إنَّك لا تحسن تُصلِّي؟ أنت إنَّما قيل لك: تُصلِّي الغداةَ ركعتين، والظُّهرَ أربعًا، فالزم ذا خيرٌ لك من أن تذكر أصحابَ الحديث، فلست بشيءٍ ولا تحسن شيئًا»(١).

قال ابن أبي الدُّنيا: «جُلِس إلى معروف [الكرخي]، فاغتابَ رجلٌ منهم رجلًا فقال: **يا هذا! اذكر يومَ يُوضع القُطن على عينَيك**»(٢).

وذكر عند الربيع بن خثيم رَحِمَهُ اللَّهُ رجل، فقال: «ذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ مِنْ ذِكرِ

---

(١)– الكفاية للخطيب البغدادي (ص١٢-١٣).
(٢)– بستان العارفين (ص٢٢١).

الرِّجالِ»(١).

وفي ترجمة **غلام الخلال الحنبلي**، يقول الذهبيُّ: «مَنْ نظرَ في كتابهِ (الشَّافي) عرف محلَّه من العلمِ لولا ما بشَّعَه بغضُ بعضِ الأئمةِ، مع أنَّه ثقةٌ فيما يَنقله»(٢).

فرضي الله عن أبي الدَّرداء حينما قال: «اطلبوا العِلمَ، فإنَّ عجزتُم فأحبُّوا أهلَه، فإن لم تُحبُّوهم فلا تُبغضوهم»(٣).

وعن عمر بن عبد العزيز: أنَّه كان يقال: «إنْ استطعتَ فكن عالِمًا فإن لم تَستطع فكنْ مُتعلِّمًا، وإن لم تَستطع فأحبّهم، وإن لم تَستطع فلا تُبغضهم»(٤).

❑❑❑❑

(١) –الزهد لأحمد (١٩٣٦)، ط: دار الكتاب العربي.
(٢)– سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٤).
(٣)– صفوة الصفوة (٦٢٨/ ١).
(٤)– جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٤٢).

هذا العلمُ لا يؤخذُ إلَّا من أهل الأدبِ، ولا يُعطَ إلَّا لمؤدَّبٍ(١).

فعن حمدان بن الأصبهاني، قال: "كنت عند شريك فأتاهُ بعضُ ولد المهدي، فاستندَ إلى الحائطِ وسألَه عن حديثٍ فلم يلتفت إليه، فأعاد عليه فلم يَلتفت إليه، فقال: كأنَّك تَستخفُّ بأولاد الخِلافة"، قال: لا؛ ولكنَّ العلمَ أزينُ عند أهلِه من أن يُضيِّعوه".

قال: فجثَا على رُكبتَيه ثمَّ سألَه، فقال شريك: «هكذا يُطلب العلمُ»(٢).

قال مجالد: «لا يُؤخذُ الدّين إلَّا عن أهل الدِّين»(٣)، وهم الثِّقاتُ: من أهل الرِّوايةِ والدِّرايةِ، وأصحابِ الرِّعايةِ.

وقال الحسن البصري: «لم يبقَ من العلمِ إلَّا غبراتٌ قليلٌ، في أوعيةِ سوءٍ، فانظروا عمَّن تأخذون دِينكم»(٤).

وقال محمد بن سيرين: «منْ قبِلتُم شهادَتَهُ فاقبلوا عِلْمَهُ»(٥).

---

(١)- وأسأل الله أن ييسر تمام كتابة جزء بعنوان: "إعلام الورى بإنَّ العلم لا يؤخذ إلا عن الثقة".

(٢)- الجامع لأخلاق الراوي (٣٤٣).

(٣)- المحدث الفاصل (ص٤٣١).

(٤)- أخرجه إياس في "العلم والحلم" (ص١٦٣)، وابن عدي في "مقدمة الكامل" (١٣/١).

(٥) -رواه ابن السني في "رياضة المتعلمين" (ص٢٨٤)، وابن عدي في "الكامل في =

وقال عبد الملك بن عمير: «مِن إِضاعةِ العلمِ أنْ تُحَدِّثَهُ غيرَ أَهلِه»[(١)].

وحكي أنَّ تلميذًا سأل عالِمًا عن بعض العلومِ فلم يفدهُ، فقيل له: لِمَ منعتَه؟

فقال: «لكلِّ تربةٍ غرسٌ، ولكلِّ بناءٍ أسٌّ».

وقال بعض البلغاءِ: «لكلِّ ثوبٍ لابسٌ، ولكلِّ علمٍ قابسٌ».

وقال بعض الأدباءِ: «إرث لروضةٍ توسَّطها خنزيرٌ، وابكِ لعلمٍ حواهُ شريرٌ»[(٢)].

وفي "طبقات علماء أفريقية" قال أسد بن الفرات: «ضربنا في طلبِ العلمِ آباطَ الإبلِ، واغتربنا في البلدان ولقينا العلماءَ، وغيرنا إنَّما طلب العلمِ خلف كانون أبيه ووراءَ منسج أمّه، ويريدون أن يلحقوا بنا!»[(٣)].

وقال إسماعيل ابن بنت السدي: «كنت في مجلسِ مالك، فسئل عن فريضةٍ، فأجاب بقول زيدٍ، فقلت: ما قال فيها علي وابن مسعود -رضي الله عنهما- فأومأَ إلى الحجَّبة، فلما همّوا بي، عدوتُ، وأعجزتُهم، فقالوا: ما نصنعُ بكتبِه ومحبرتِه؟

فقال: اطلبوه برفقٍ.

فجاؤُوا إليَّ، فجئتُ معهم، فقال مالك: من أين أنت؟

= الضعفاء" (١/ ٢٥٦)، وابن عساكر "تاريخ دمشق" (٢١/ ٢٧٦).

(١) -المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص٣٦٥).

(٢)- ذكرهم الماوردي في "أدب الدنيا" (ص٨١).

(٣)- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم (١/ ٢٦٧).

قلتُ: من الكوفة.

قال: فأين خلفتَ الأدبَ؟

فقلتُ: إنمَّا ذاكرتُك لأستفيدَ.

فقال: إنَّ عليًا وعبد الله لا يُنكر فضلهما، وأهلُ بلدنا على قول زيد بن ثابت، وإذا كنت بين قومٍ، فلا تبدأهم بما لا يَعرفون، فيبدأك منهم ما تَكره»(١).

وقيل:

ولا تُشاركْ في الحديثِ أهلَه وإنْ عرفتَ فرعَه وأصلَه(٢)

وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أأنثرُ درًّا بين سارحةِ النّعم أأنظمُ منثورًا لراعيةِ الغنم

ومَن منحَ الجهَّالَ عِلمًا أضاعَه ومَن منع المستوجبينَ فقد ظَلم(٣)

قال رُوَيْم بن أحمد البغدادي لابنه: «يا بُني اجعل عَمَلك مِلْحًا، وأدبَك دقيقًا».

قال الْقَرَافِيّ: "أي استكثر من الأدبِ حتَّى تكون نسبَتُهُ في الكثرة نسبة الدَّقيقِ إلى الملحِ، وكثيرٌ من الأدبِ مع قليلٍ من العملِ الصَّالحِ، خيرٌ من كثيرٍ منْ العملِ مع قلَّةِ الأدبِ"(٤).

---

(١)– ذكره الذهبي في "السير" في ترجمة "إسماعيل الفزاري" (١١/ ١٧٧).

(٢)– انظر: الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣)– مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص٢٣)، وهو في "السير" أطول منه (١٠/ ٧١).

(٤)– الفروق للقرافي (٣/ ٩٦).

وعن نمير بن أوس، قال: «كانوا يقولون الصَّلاحُ من الله، والأدبُ من الآباءِ»(١).

وكان زينَ العابدين علي بن الحسين عليهما السَّلامُ كان يذهب إلى زيد بن أسلم، فيجلس إليه، فقيل له: أنت سيد النَّاس وأفضلهم تذهب إلى هذا العبدِ فتجلس إليه، فقال: «العلمُ يُتبع حيث كان، ومَن كان»(٢).

وقيل:

والمـــرءُ لا يَســـمو بغيـــر الأدبِ   وإنْ يكـــن ذا حســـبِ ونســـبِ(٣)

وعن عمر بن سيّار المنبجي يقول: سمعتُ مالك بن أنس -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: يقول: وجَّه إليَّ هارون الرشيد يسألني أن أحدِّثه، فقلت: «يا أميرَ المؤمنين، إنَّ العلمَ يُؤتى ولا يَأتي، قال: فصارَ إلى منزلي فاستندَ معي إلى الجِدارِ.

فقلتُ: يا أمير المؤمنين إنَّ من إجلال اللهِ إجلالَ ذي الشَّيبةِ المسلم.

قال: فجلس بين يَديَّ، قال: فقال لي بعد مدَّةٍ: يا أبا عبد الله، تواضعنا لعِلمِك فانتفعنا به، وتواضعَ لنا عِلم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به.

---

(١)- رواه البخاري في "الآدب المفرد" (ص٥٤)، ضعيف الإسناد، فيه الوليد بن مسلم، مدلس، عن الوليد بن نمير مجهول الحال، وذكره ابن أبي الدنيا في "العيال"، رقم (٣٥٧) بتقديم وتأخير.

وقال الإمام مالك: «الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والآمهات» كما في "الإلماع" للقاضي عياض (ص٢٨٤).

(٢)- أدب العلماء للحسين بن منصور اليماني (ت١٠٥٠هـ) (ص١٤).

(٣)- خلاصة تعظيم العلم (ص٧٥).

وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتِهم فيحدِّثُهم، ويأخذُ دراهمهم»[(١)].

وعن عبد الرَّحمن المستملي، عن سفيان الثوري، قال: "قيل: أي شيءٍ شرّ؟ قال: «اللهمّ غفرًا العلماء إذا فسدوا»[(٢)].

وقال محمد بن بركة الحلبي: سمعتُ عثمان بن خرزاذ يقول: «يحتاجُ صاحب الحديث إلى خمس، فإن عدمتَ واحدةً، فهي نقصٌ، يحتاج إلى عقلٍ جيّدٍ، ودينٍ وضبطٍ وحذاقة بالصَّناعة، مع أمانةٍ تعرفُ منه».

قال الذهبي: "الأمانةُ جزءٌ من الدِّين، والضبطُ داخلٌ في الحذق، فالذي يحتاج إليه الحافظُ أن يكون تقيًّا ذكيًّا، نحويًّا لغويًّا زكيًا، حييًّا، سلفيًّا، يكفيه أن يكتب بيده مائتي مجلدٍ، ويحصل من الدواوين المعتبرةِ خمس مئة مجلدٍ، وأنْ لا يَفتر من طلب العلمِ إلى الممات، بنيّةٍ خالصةٍ وتواضع، وإلَّا فلا يتعنَّ"[(٣)].

□□□□

---

(١)– رواه أبو هلال في "الحث على طلب العلم" (ص٤٢)، والله أعلم بصحته، ومع ذلك فإنَّه يجوز الأخذ على التحديث، وانظر لزامـًا في هذا "تـذكرة السامع والمتكلم" (ص٤٩) فهو مهم ومفيد.

(٢)– حلية الأولياء (٧/ ٥)، ذكره في ترجمة سفيان.

(٣)– سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٨٠).

والاحترامُ لأهل العلمِ واجبٌ، والتنقُّصُ منهم محرَّمٌ، فالعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ.

ولو لم يكن من دليلٍ على تعظيمهم، سوى اشهاد اللهِ لهم، وتعديله سبحانه لأشخاصهم بقبول شهادتهم على وحدانيّته لكان ذلك كافيًا، كما قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]

قال أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «محبَّةُ العلماءِ دِين يدانُ به»(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَن آذى فَقِيهًا فقد آذى رسولَ الله ﷺ، ومَن آذى رسولَ الله ﷺ فقد آذى اللهَ تعالى عزَّ وجلَّ»(٢).

وعن معاوية بن قرة قال: قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلبوا العلمَ، فإنْ عجزتُم فأحبّوا أهلَه، فإنْ لم تُحبُّوهم فلا تُبْغضوهم»(٣).

وقال الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان لمن أثقلَ عليه: «ما هذا؟! قد احتملتُك وأنا ابن تِسعين سنةً، فاتَّقِ اللهَ في المشايخ، فربما استُجيبت فيك دعوةٌ»(٤).

---

(١)-—صفة الصفوة (١/ ٣٣٠) و "مفتاح دار السعادة" (١/ ٦٦).

(٢)- ينظر: في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٣) و "المجموع في شرح المهذب" (١/ ٢٢).

(٣)- صفة الصفوة (٦٢٨/ ١).

(٤)- سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٥٩)، و "الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام" (ص٣٢٠).

(قصَّة) وروى السَّخاوي، في "فتح المغيث "روينا في "المحدث الفاصل" للرامهرمزي من طريق يحيى بن سعيد القطّان، قال: قدمتُ الكوفةَ، وبها ابن عجلان، وبها ممّن يطلب الحديثَ مليح بن الجراح أخو وكيع، وحفصُ بن غياث، ويوسفُ بن خالد السمتي، فكنّا نأتي ابن عجلان، فقال يوسف: هلمّ نقلب عليه حديثه حتى ننظرَ فهمَه.

قال: ففعلوا، فما كان عن أبيه جعلوه عن سعيد المقبري، وما كان عن سعيد جعلوه عن أبيه.

قال يحيى: فقلتُ لهم: لا أستحلُّ هذا، فدخلوا عليه فأعطوهُ الجزءَ فمرَّ فيه، فلما كان عند آخرِ الكتابِ انتبهَ، فقال أَعِد، فعرضتُ عليه، فقال: ما كان عن أبي فهو عن سعيد، وما كان عن سعيد فهو عن أبي.

ثمَّ أقبل على يوسف فقال: إن كنتَ أردتَ شيني وعيبي فسلبك اللهُ الإسلامَ.

وقال لحفص: فابتلاكَ اللهُ في دينك ودنياك.

وقال لمليح: لا نفعكَ اللهُ بعلمك.

قال يحيى: فمات مليح قبل أن ينتفع بعلمه، وابتلي حفص في بدنه بالفالجِ وفي دينه بالقضاءِ، ولم يمت يوسفُ حتى اتهم بالزندقة"(١). ونعوذُ بالله من

(١)– فتح المغيث (٢/ ١٣٩-١٤٠)، و"المحدث الفاصل" (ص٤٠٨-٤٠٩)، وذكره ابن حجر في "النكت على كتاب ابن الصلاح" (٢/ ٨٧١-٨٧٢)، والذهبي في "السير" (٦/ ٣٢١)، وقال عقبها: «فهذه الحكاية فيها نظر، وما أعرف عبد الله هذا، ومليح لا يدري من هو، ولم يكن لوكيع بن الجراح ولد يطلب أيام ابن عجلان، ثمَّ لم يكن ظهر لهم قلب الأسانيد على الشيوخ، إنما فعل هذا بعد المائتين».

غضبه وعقابِه.

وفي ذلك تعلم حقيقةَ قولِ أبي الدرداء رضي الله عنه: «إيَّاكم وفِراسةَ العلماءِ، احذروا أن يشهدوا عليكم بشهادةٍ تكبُّكم على وجوهِكم في النَّار، فو اللهِ إنَّه الحقّ يقذفُه اللهُ في قلوبهم ويجعله على أبصارهم»[1].

❐❐❐❐

(١)– جامع بيان العلم (١٦٠٩).

وهم أولياء اللهِ بحقٍّ[١].

روى الخطيبُ في "الفقيه والمتفقه"، عن الإمامين الجليلين أبي حنيفة والشافعيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: «إنْ لم يكن العلماءُ والفقهاءُ أولياء اللهِ، فليس للهِ وليّ»[٢].

وقال ذو النُّون المصري: «إيَّاك أنْ تطلبَ العلمَ بالجهلِ؛ قيل: كيف يطلبُ العلم بالجهل؟

قال: إذا قصدت العالمَ في غيرِ وقتِه، وتخطيت الرقابَ، وتركتَ في طلبه حرمةَ الشيوخِ، ولم تستعمل فيه السكينة والوقار وأدب النفس، فذلك طلب العلم بالجهل»[٣].

وذكر أبو علي بن أبي نصر، وأبو أحمد بن المفسر، وأبو سليمان بن زبر: أنَّ

---

(١)- قال الله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢]، قال شيخ الإسلام في "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" (ص٧) «فأولياء الله هم المؤمنون المتقون».

(٢)- في الفقيه والمتفقه (١/ ١٥٠)، وهو من كلام أبي حنيفة، ورواه أيضًا بنفس الصفحة من كلام الشافعي (١/ ١٥٠)، ورواه عن الشافعي البيهقي في "مناقبه" (٢/ ١٥٥)، والجمع بين لفظ الإمامين مذكور في كتاب "التبيان" للنووي (ص٤٨).

وانظر أيضًا: "ورثة الأنبياء في شرح حديث أبي الدرداء" (ص٥٠)، و"بستان العارفين" لابن الجوزي، "فضل الْعلمَاء" (ص٧٢)، وذكره الحافظ المزي في "تهذيب الكمال"، من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي، برقم (١٧٢٥).

(٣) -ربيع الأبرار (٤/ ٤٣).

أحمدَ بن علي بن سعيد بن إبراهيم القرشي الأموي مات سنةَ اثنتين وتسعين ومئتين، قال: وصلَّينا عليه في مصلَّى العيدِ، والذي صلَّى عليه أبو حفص عمر بن الحسن وهو يومئذٍ القاضي بدمشق، وكبَّر عليه خمسًا فسألنا القاضي عن تكبيره خمسًا، **فقال: لفضل العِلمِ**[١].

وقال الحافظُ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلَم يا أخي وفَّقنا اللهُ وإياك لمرضاته، وجعلنا ممَّن يخشاهُ ويتَّقيه حقَّ تقاته، أنَّ لحومَ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةُ اللهِ في هتك أستارِ منتقصيهم معلومةٌ، وأنَّ مَن أطلقَ لسانه في العلماء بالثَّلب ابتلاهُ اللهُ تعالى قبل موته بموت القلبِ، فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ»[٢].

لحومُ أهلِ العلم مسمومَة   ومَن يعاديهم سريعُ الهلاك
فكن لأهل العلم عونًا، وإن   عاديتَهم يومًا فخذ ما أتاك

وقال أبو تراب النَّخشبيُّ: «أَلِفت القلوبُ الإعراضَ عنْ اللهِ عز وجل صَحِبَتها الوقيعةُ في الأولياء»[٣].

---

(١)– تهذيب الكمال (١/ ٤٠٧).

(٢)– التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٨). قال مالك بن دينار: «كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينًا للخونة، وكفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع بالصالحين» كما في "صفة الصفوة" (٢/ ١٦٧).

(٣) –صفة الصفوة (٢/ ٣٤٨)، ومن أعظم الأدلة في تعظيم حرمة أهل العلم، ما رواه البخاري (٦٧–وهو مكرر) ومسلم (١٦٧٩)، واللفظ للبخاري من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: " إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه" فهذا للمسلم على وجه الخصوص وهو بحق العالم أولى، والله أعلم.

وقال ابن حجر الهيتمي في "الزواجر عن اقتراف الكبائر": "وفي "فتاوى البديعي من الحنفيَّة": «مَن استخفَّ بالعالم طلقت امرأتُه، وكأنَّه جعلَه ردَّةً!»(١).

ونصَّ بعض فقهاءِ الحنفيّةِ «على أنَّ مدرِّسَ العلمَ الشرعيَّ كفءٌ لبنت الأميرِ»(٢).

وعن مجاهد، عن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه **قال**: «ثلاثٌ لا يستخفُّ بحقهنَّ إلا منافقٌ: إمامٌ مُقْسِطٌ، وذو شيبةٍ في الإسلامِ، وَمُعَلِّمُ الخير»(٣).

وقال علي رضي الله عنه: «أَنْصحُ النَّاسِ وَأَعلَمُهُم بِاللهِ أَشدُّ النَّاس حُبًّا وَتَعْظِيمًا لَحُرْمَةِ أَهلِ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ»(٤).

وقال ابن المبارك: «مَن استخفَّ بالعلماءِ ذهبَت آخرتُه، ومَن استخفَّ بالأمراء ذهبت دُنياه، ومَن استخفَّ بالإخوان ذهبت مروءَتُه»(٥).

وقال الإمامُ أحمد بن الأذرعي: «الوقيعةُ في أهل العلمِ ولا سيما أكابرهم من كبائر الذُّنوبِ»(٦).

---

(١)– انظر الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٠٦)، ط: دار الحديث.

(٢)– المروءة وخوارمها (ص١٥٩)، وانظر: حاشية ابن عابدين (٢/ ٣٢٢)

(٣) –العلم والحلم (ص١٠٥)، ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٢٣٥١)

(٤) –حلية الأولياء (١/ ٧٥).

(٥)– تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٨٨٢).

(٦)– الرد الوافر (ص١٩٧) نقلًا عن "الإعلام بـ حرمة أهل العلم والإسلام" (ص٣١٩)، ولم أجده في "الرد الوافر"، فالله أعلم.

وقال حامد اللفاف: «إذا أراد اللهُ هلاكَ امرئٍ عاقبهُ بثلاثةِ أشياءَ، أَوَّلُهَا: يرزقُهُ الله الْعِلْمَ ويمنعُهُ عن عملِ العلماءِ، والثاني: يرزقُهُ صحبة الصالحين ويمنعُهُ عن معرفةِ حقوقِهِم، والثالث: يفتحُ عليهِ بابَ الطاعاتِ ويمنعُهُ من إخلاصِ العمل»(١).

وكان أبو سِنان الأسدي يقول: «إذا كان طالبُ العلمِ قبل أن يتعلَّم مَسألةً في الدِّين يتعلَّمُ الوقيعة في النَّاس؛ متى يُفلِح؟!»(٢).

وقال العلامة ابن مفلح الحنبلي: «فاحذَر من الإقدَامِ على الطَّعنِ على العلماءِ مع عدم بلوغك إلى مقاماتهم، واختلافِ أحوالهم حتى أنَّهم في حالِ كشخصٍ، وفي حالٍ آخرٍ كشخصٍ آخَرَ، فإنَّ للعبد عند كشف الحقِّ محوًا عن نفسه، والعالِم يتلاشى في عينِهِ، ولهذا قالت المتصوِّفةُ للصَّغار: يَسلمُ للمشايخ الكبار حالهم، وكلامُهم سمٌّ قاتلٌ لهم أولًا، ثمَّ لمن لا يَفهم ما تحت كلامهم، والقاتلُ قد يكون مَعذورًا، والمقتولُ شهيدًا، أمَّا المنكرُ فإنَّه جار على الظَّاهر.

وأمَّا القائلُ فقال بحكم حال كشفت له خاصةً وحجبَ عنها السَّامع، ومن هنا " كلِّموا النَّاس على قدَرِ عقولهم". فمَن علم أنَّ الخلقَ لا يَستوون في المقال، ولا في الأحوال لا يعقدُ الظُّنون ببادرة الواقعِ، فيقعُ ناقصًا»(٣).

وذكر أبو عبد الله القرطبي في "تفسيره" لسورة آل عمران، «قيل: كل بلدةٍ يكون فيها أربعةٌ فأهلها معصومون من البلاء:

---

(١) -تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٣٢) ط: ابن كثير.

(٢)- ترتيب المدارك (٢/ ١٤-١٥)

(٣)- الآداب الشرعية (١/ ٢٧٩).

- إمامٌ عادلٌ لا يَظلم.
- وعالمٌ على سبيلِ الهدى.
- ومشايخُ يأمرون بالمعروف، ويَنهون عن المنكر، ويحرِّضون على طلب العلمِ والقرآنِ.
- ونساؤُهم مَستوراتٌ لا يتبرجنَّ تبرُّج الجاهليّة الأُولى»(١).

وذكره لأهل العلمِ في الصُّنوف الأربعةِ التي يرفعُ اللهُ بها البلاءَ، دليلٌ على فضل العلماءِ وولايتهم، فحذاري ممَّن يكيدُ بهم سُوءًا، ويريدُ بهم شرًّا.

وقال ذو النُّون: «ثلاثةٌ من أعلام الخيرِ في المتعلِّم:

- تعظيمُ العلماءِ بحسن التَّواضعِ.
- والعمى عن عيوب النَّاسِ بالنَّظر في عيب نفسِه.
- وبذلُ المالِ في طلب العلمِ إيثارًا له على متاعِ الدُّنيا»(٢).



---

(١)- ذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع بيان العلم" (١٤٩) بلفظٍ: «الناس ثلاث، فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة، والباقي همج رعاع أتباع كل ناعق»، ورواه بتمامه رقم (١٨٧٨).

(٢)- شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٣٢٦).

وإنَّما يُنالُ العلمُ بالتَّواضعِ.

فلا بدَّ أنْ يعلَم طالِبُ العلمِ أنَّ منْ أهمِ الأسبابِ المعينةِ لحصولِ العلمِ التواضعُ مع أهلِهِ والترفقُ بهم، وانظر إلى الأرضِ المرتفعةِ كيف لا يجتمع على ظهرها الماءُ، وعكسها الأرض المنخفضة كيف تجمع الماءَ، وتنبتُ العُشبَ فينفعُ الله بها.

وقد قال اللهُ تعالى حكايةً عن الخِطاب الذي وقع بين موسى والخَضر عليهما السَّلامُ: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف:٦٦] وهذا تواضعٌ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأدبٌ في الطَّلب مَسبوقًا بعبارات الاحترامِ والإجلالِ، **وهكذا ينبغي أن يكون الطَّالبُ.**

وفي "الصَّحيحين"، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النَّبي ﷺ قال: "مثل ما بعثني اللهُ به من الهدى والعلمِ كمثل الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا فكان منها نقيّةً قبلت الماءَ، فأنبتَت الكلأَ والعشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادب أمسكَت الماءَ فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفةٌ أخرى إنَّما قيعان لا تُمسك ماءً ولا تنبتُ كلًا؛ فذلك مثل مَن فقِه في دِين اللهِ ونفعَه ما بعثني اللهُ به فعلمَ وعلَّمَ ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبَل هديَ اللهِ الذي أرسلتُ به"(١)

---

(١)- صحيح البخاري (٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٨٢)

ولله در الإمام المفسر التابعي الجليل مجاهد بن جبر (ت١٠٤هـ) حينا قال: «لا يتعلَّمُ العلمَ مَستحيٍ ولا مُستكبِر»(١).

ومعنى ذلك: أنَّ على طالب العلمِ أن يتواضعَ، وأن يَلين جانبه، ويطيبَ كلامُه في سماع مَن يأخذُ عنه، وإلَّا فلن يَنتفع بعمله؛ لأنَّ العلمَ بلا احترام وأدب كنارٍ بلا حطبٍ.

وهذ الإمام عبد الرَّحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصفُ حالَ طلابِ العلمِ الصَّادقين المثابرينَ فيقولُ:

- «كان الرَّجلُ إذا لقي مَنْ هو فوقَه في العلمِ تواضعَ له.
- وإذا لقي مَنْ هو مثله في العِلمِ، فهو يومُ غنيمةٍ، دارسه وذاكره.
- وإذا لقي مَن هو دونَه في العلم، تواضعَ له وعلَّمَه.
- ولا يكون إمامًا في العلمِ مَن روى كلّ ما سمعَ، ولا يكون إمامًا في العلمِ مَن روى الشاذَّ من العلمِ، ولا يكون إمامًا في العلم مَن روى عن كلِّ أحدٍ»(٢).

وقال وكيع(٣): «لا يكملُ الرَّجلُ حتى يكتبَ عمَّن هو فوقَه، وعمَّن هو

(١)- رواه البخاري في "صحيحه" في كتاب العلم، "باب الحياء في العلم" (١/ ٦٠)، وأوصله ابن حجر في "تغليق التعليق" (٢/ ٩٣)، وقال: "رواه عبد الغني بن سعيد في "أدب المحدث" والبيهقي في "المدخل"

(٢)- العلم والحلم لإياس بن معاوية (٦٤٣)، ومن غربة العلم أن يكون الحال، كما أخبر أبو حازم بقوله: "صار الناس في زماننا يعيب الرجل من هو فوقه في العلم ليري الناس أنَّه ليس به حاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه فذهب العلم وهلك الناس".

(٣) -أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي الكوفي، محدث العراق، كان =

مثلَه، وعمَّن هو دونَه»(١).

وهذا الكمال والفضلُ يزيدُ الطالب رفعَة فوق رفعة العلمِ فلا يضيعهُ إلا من لا يعرفُ قدرهُ أو أعجبته نفسه.

ولله در عمر مولى غفرة حينما قال: «لا يزال العالمُ عالِمًا ما لم يجسر في الأمورِ برأيه، وما لم يَستحي أن يمشي إلى مَن هو أعلمُ منه»(٢).

وقال أبو بكر الأبهري: «دخلتُ جامعَ طرسوس وجلست لسارية من سواريه، فجاءني رجلٌ، فقال لي: إنْ كنت تقرأ فهذه حلقةُ القرآنِ، وإن كنت مُقرئًا فاجلِس يُقرَأ عليك، وإن كنتَ فقيهًا، فاجلس يُحلق إليك، وإن كنت مُتفقِّهًا فهذه مجالسُ الفِقه، قُم إليها. فإنَّ أحدًا لا يجلس في جامعنا دون شُغل»(٣).

=

من بحور العلم، وأئمة الحفظ.

حدث عنه: سفيان الثوري - أحد شيوخه - وعبد الله بن المبارك، والفضل بن موسى السيناني - وهما أكبر منه - ويحيى بن آدم، وعبد الرحمن بن مهدي، والحميدي، ومسدد، وعلي، وأحمد، وابن معين، وإسحاق، وبنو أبي شيبة، وأبو خيثمة، وأبو كريب، وابن نمير، وأبو هشام الرفاعي، وعبد الله بن هاشم الطوسي، وأحمد بن عبد الجبار العطاردي، وإبراهيم بن عبد الله العبسي، وأمم سواهم.

وكان والده ناظرا على بيت المال بالكوفة، وله هيبة وجلالة.

وروى عن: يحيى بن أيوب المقابري.

قال: ورث وكيع من أمه مائة ألف درهم.

قال يحيى بن يمان: لما مات سفيان الثوري، جلس وكيع موضعه" كما في "السير" (٩/ ١٤٠-١٤٢).

(١)- سير أعلام النبلاء (٩/ ١٥٩).

(٢)- جامع بيان (٨٢٣)، ط: ابن الجوزي.

(٣)- ترتيب المدارك (٦/ ١٩٠).

وعن سليمان بن موسى قال: «يجلسُ إلى العالِم ثلاثة: رجلٌ يأخذُ كلّ ما سمعَ، ورجلٌ لا يكتبُ، ويَسمعُ، فذاك يقال له: جليسُ العالِم، ورجلٌ يتنقى، وهو خيرهم»(١)، فقُلي منْ أيِّ الأصنافِ أنت؟

ورحم اللهُ مَن قال:

العلــــمُ حـــربٌ للفتـــى المتعـــالي كالسـيلِ حـربٌ للمكـانِ العـالي(٢)

وروى ابن أبي حاتم عن محمود بن آدم المروزي فيما كتب إليَّ قال: «ما رأيتُ وكيعًا عند ابن عيينةَ قطّ إلَّا جاثيًا بين يدَيه على ركبتَيه ساكتًا لا يتكلَّمُ»(٣).

وقال أبو بكر الآجري: "فإذا نشر اللهُ له الذِّكر عند المؤمنين أنَّه من أهل العلمِ، واحتاجَ النَّاسُ إلى ما عنده، ألزَمَ نفسَه التَّواضع للعالم وغير العالِمِ، فأمَّا تواضعه لمن هو مثله في العلمِ، فإنَّها محبّة تُنبت له في قلوبهم. وأمَّا تواضعه للعلماءِ فواجبٌ عليه، إذ أراهُ العلمَ ذلك. وأمَّا تواضعه لمن هو دونَه في العلمِ، فشرف العلمِ له عندَ اللهِ وعندَ أُولي الألبابِ، وكان من صفتِه في علمِه وصدقِه وحسنِ إرادتِه يريدُ اللهَ بعلمه"(٤).

❑❑❑❑

---

(١)– تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص٣١٨).
(٢)– التبيان للنووي (ص٦٣).
(٣)– الجرح والتعديل (١/ ٥٠).
(٤)– أخلاق العلماء (ص٥١).

وهذا الأدبُ مطلوبٌ من الطّالبِ شريعةً وديانةً، وعرفًا وعادةً؛ والجزاءُ من جنس العملِ.

قال ابن الجوزي: «كان جماعةٌ من السَّلف يَقصدون العبدَ الصَّالحَ للنَّظر إلى سمته وهديِه لا لاقتباسِ علمِه، وذلك أنَّ ثمرةَ علمِه هديُه وسمتُه. فافهم هذا، وامزج طلبَ الفِقه والحديثِ بمطالعة سيرِ السَّلفِ والزُّهادِ في الدُّنيا، ليكون سببًا لرقَّةِ قلبك...»(١).

وعن الحسن، قال: «كان الرَّجلُ يَطلبُ العِلمَ، فلا يلبث أنْ يُرى ذلك في تخشُّعِه، وزهدِه، ولسانِه، وبصرِه»(٢).

وروى الشَّيخُ محي الدِّين في "بستان العارفين"، عن الشيخ الفقيهِ الإمام الصَّالح محمّد البرسي قال: ننظر الحافظ عبد الغني ونحن جماعة فيهم جماعةٌ يُفتون فلمَّا وضعَ رِجلَه على درجة الكرسيِّ، قلت في نفسي: بأيِّ شيءٍ فضَّلَك اللهُ علينا؟

فالتفتَ إليَّ وقال: يا مدبرَ مَن خدم خُدِم، مَن خدم خُدِم، من خدم خُدِم فقلت: آمنتُ بالله»(٣).

ولله درُّ العراقيّ إذ نصحَ الطّالب فقال:

---

(١)– انظر: صيد الخاطر (ص٢٢٩).

(٢)– سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٣).

(٣)– بستان العارفين (ص٣٨٦).

وَأَخْلِصِ النِّيَّةَ فِي طَلَبِكَا وَجِدَّ وَابْدَأْ بِعَوَالِي مِصْرِكَا
وَمَا يُهِمُّ ثُمَّ شُدَّ الرَّحْلَا لِغَيْرِهِ وَلَا تَسَاهَلْ حَمْلَا
وَاعْمَلْ بِمَا تَسْمَعُ فِي الْفَضَائِلِ وَالشَّيْخَ بَجِّلْهُ وَلَا تَثَاقَلِ
عَلَيْهِ تَطْوِيلًا بِحَيْثُ يَضْجَرُ وَلَا تَكُنْ يَمْنَعُكَ التَّكَبُّرُ
أَوِ الْحَيَا عَنْ طَلَبٍ وَاجْتَنِبِ كَتْمَ السَّمَاعِ فَهْوَ لُؤْمٌ وَاكْتُبِ(١)

وقال عم الأصمعيُّ يوصيه: «يا بنيَّ، مَنْ لم يكن استفادة الأدبِ أحبَّ إليه من الأهلِ والمالِ لم يَنجُب»(٢).

وأنشدَ أبو الخطّاب الكلوذاني رَحِمَهُ اللهُ:

أنا شيخٌ وللمشايخ بالآ دابِ علم يخفى على الشبّانِ
فإذا ما ذكرتني فتأدبْ فهو قرضٌ يردّ بالميزان(٣)

❑❑❑❑

(١)– ألفية العراقي المسماة بـ (التبصرة والتذكرة في علوم الحديث) (٧١٣-٧١٧).
(٢)– الحث على طلب العلم لأبي الهلال العسكري (ت٤٠٠هـ) (ص٢٤)، ط: مكتبة ابن تيمية.
(٣)– ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٢٦)، وعنه "آداب المتعلم اتجاه المعلم" (ص٩)، وعنه نقلت.

وعليه أن يصبرَ على خلق معلمِّه.

وليكن لسان حالِه ومقالِه ما روي عن بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمِّهِ تصدَّق بشيءٍ، وقال: «اللهمّ استُر عيبَ معلِّمي عنِّي، ولا تذهب بركةَ علمِه منِّي»(١).

وقال معافى بن عمران: «مثل الذي يَغضبُ على العالِم مثل الذي يَغضب على أساطين الجامعِ».

وقال الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيل لسفيان بن عيينة: إنَّ قومًا يأتونك من أقطار الأرضِ تَغضبُ عليهم يُوشك أن يذهبوا أو يتركوك.

فقال للقائل: هم حَمقى إذًا مثلك إنْ تركوا ما يَنفعهم لسوء خُلقي»(٢).

وروى الطحّاوي: حدَّثنا يونسُ، سمعتُ سفيان -وذكر حديثًا- فقالوا: يُخالفك فيه مالك.

فقال: أتقرنني بمالك؟ ما أنا وهو إلَّا كما قال جرير:

وَابْنُ اللَّبُوْنِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيْسِ(٣)

---

(١)- انظر: التبيان للنووي (ص٦٤)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص١٤٤).

(٢)- تذكرة السامع (ص١٠٠-١٠١).

(٣)- سير أعلام النبلاء، "ترجمة مالك" (٨/ ٧٣-٧٤)، قوله: (ابن اللبون) ما أوفى على ثلاث سنين، قوله: (لز) ربط. قوله: (القرن) الحبل الذي يشد به البعيران.
ونحوهما فيقرنان معا، والبزل: جمع بازل: البعير الذي دخل في السنة التاسعة، والقناعيس: =

وعن علي بن حرب، قال: حدَّثني أبي، قال: «كنَّا في مجلس سفيان بن عيينة فضجرَ، فقام من مجلسه فقامَ إليه رجلٌ من أقصى المجلسِ فقال: يا أبا محمّد، أنت غايةُ النَّاسِ وطلبتهم، وإنَّ الرَّجلَ ليريدُ الحجَّ وما ينشط إلَّا إلى لقائك، فجلسَ، وأنشأَ يقول:

خلَتِ الدِّيارُ فسدتُ غير مُسوَّدِ   ومن الشَّقاءِ تَفرُّدي بالسُّؤدَدِ(١)

وقال إبراهيم بن الأشعث: «رأيت سفيانَ بن عيينة يُقبِّل يدَ الفضيلِ مرَّتين»(٢).

(**قصَّة**): ورضي اللهُ عن ابن عيينة حين **كان سببًا في فكاك الإمامِ العَلمِ، والجبلِ الأشمِّ وكيع بن الجرَّاح من القتل، في "محنةٍ"** معلومةٍ حصلت معه، وهي تدورُ أنَّ النبيَّ ﷺ عندما مات انتفخَ وتغيَّرَ لونُه، وهو خبرٌ غير صحيحٍ، وأتركُ السِّياقَ للذهبي رَحِمَهُ اللهُ، وفيه يقول: "قال علي بن خشرم: حدَّثنا وكيعٌ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهي: أنَّ أبا بكر الصدِّيق جاء إلى النبيِّ ﷺ بعد وفاتِه، فأكبَّ عليه، فقبَّله، وقال: بأبي وأمِّي، ما أطيبَ حياتَك وميتتك.

ثمَّ قال البهي: وكان تركَ يومًا وليلةً، حتى ربا بطنُه، وانثنت خُنصراه.

قال ابن خشرم: فلمَّا حدَّث وكيعٌ بهذا بمكَّة، اجتمعت قريش، وأرادوا

= جمع قنعاس: الجمل العظيم الجسم، الشديد القوة، قال البغدادي: ضربه مثلًا لمن يعارضه ويهاجيه، يقول: من رام إدراكي كان بمنزلة ابن اللبون إذا قرن في قرن مع البازل القنعاس، إن صال عليه لم يقدر على دفع صولته ومقاومته، وإن رام النهوض معه قصر عن عدوته".

(١)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٢١٠).

(٢)- سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٨).

صلب وكيعٍ، ونصبوا خشبةً لصلبه، فجاء سفيان بن عيينة، فقال لهم: **اللهَ اللهَ، هذا فقيهُ أهلِ العراقِ، وابن فقيهِه، وهذا حديث معروفٌ.**

قال سفيانُ: **ولم أكن سمعتُه، إلَّا أنِّي أردت تخليصَ وكيعٍ.**

قال علي بن خشرم: سمعت الحديث من وكيع بعد ما أرادوا صلبَه، فتعجَّبتُ من جسارَتِه.

وأخبرت أنَّ وكيعًا احتجَّ، فقال: إنَّ عدَّة من أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ منهم عمر، قالوا: لم يُمت رسولُ اللهِ، فأرادَ اللهُ أن يُريهُم آيةَ الموتِ.

قال الذهبي مُعلِّقًا: "فهذه زلةُ عالمٍ، فما لوكيع، ولرواية هذا الخبر المنكرِ، المنقطع الإسنادِ! كادت نفسُه أن تذهب غلطًا، والقائمون عليه مَعذورون، بل مأجورون، فإنَّهم تخيَّلوا من إشاعة هذا الخبر المردود، غضًا ما لمنصب النبوَّة، وهو في بادئ الرَّأي يوهم ذلك، ولكن إذا تأملتَه، فلا بأس -إن شاء الله- بذلك، فإنَّ الحيَّ قد يَربو جوفُه، وتَسترخي مَفاصلُه، وذلك تَفرُّعٌ من الأمراض (وأشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ)"(١).

وذكر النووي" في "الترخيص بالقيام"، عن أبي هشام الرِّفاعي، قال: قام وكيع لسفيان، فأنكرَ عليه قيامَه فقال: أتنكرُ عليَّ قِيامي، وأنت حدَّثتني عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ، «**إنَّ من إجلالِ اللهِ تعالى إجلالَ ذي الشَّيبةِ المسلم**»(٢).

---

(١)– سير أعلام النبلاء (٩/ ١٦٠).

(٢)– انظر: كتاب الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزَيَّة من أهل الإسلام، للإمام محيي الدين أبي زكريا النووي الحوراني ثم الدمشقي (ص٤٨)، ط: دار الفكر–دمشق.

وليعلم بإنَّ وجودَ الأستاذِ في حياة الطالب وتوجيهه وتعليمَه العلمَ نعمةٌ عظيمةٌ.

وبركةٌ لا يَعلمُ قَدرها كلّ أحدٍ، وموتُ العالِمِ للطّالب غربةٌ وحسرةٌ(١).

كما قال الإمامُ أحمد: «إنَّما النَّاسُ بشيوخهِم، فإذا ذهب الشُّيوخُ تودَّع من العَيشِ» (٢).

وقال حمادُ بن زيد: مرضَ يونس بنُ عبيد، فقال أيوب: «ما في العيشِ بعدك من خيرٍ»(٣).

وقال زياد وهو على منبرِ الكوفةِ: «إنَّما النَّاسُ بأعلامهِم، وعلمائِهم، وذوي أسنانِهم»(٤).

وقال الإمامُ الشافعيُّ: «ضياعُ العالِمِ أن يكون بلا إخوان»(٥).

---

(١)- وانظر بخصوص ذلك كتاب "الرحلة في طلب الحديث" للخطيب البغدادي (ص١٦٦وما بعد)، "ذكر من رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده، فمات قبل ظفر الطالب منه ببلوغ مراده"، وكتاب "الحسرات فيمن رحل إلى محدث فوجده قد مات" ط: ابن حزم.

(٢)- طبقات الحنابلة (١/ ٢٧٤).

(٣)- طبقات علماء الحديث (١/ ٢٢٩)، وهو في تهذيب الكمال، ولفظه: "قبح الله العيش بعدك" (٣٢/ ٥٣١).

(٤)- جامع بيان العلم (٢٦٠) (١/ ٢٣٤).

(٥)- تاريخ الإسلام (١٤/ ٣٢٦).

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، يقول: «كنَّا عند عبيدِ اللهِ بن عمر القواريري يومَ نُعي إليه يحيى بن معين فبكى واسترجعَ، ثمَّ روى عن بعض شيوخِه، عن هشام بن حسان، عن الحسن أنَّه قال: «إنَّ من أعظمِ النَّاسِ مُصيبةً عليك، مَن إذا رأيتَه وجدت عندَه نَصيحةً فبينا أنت كذلك إذ فقدته» وإنَّ أبا زكريّا من أعظم النَّاسِ مُصيبةً عندنا به[1].

وروى أبو نعيم في "الحلية"، قال علي بن الحسين: «فقد الأحبَّةِ غربةٌ»[2].

وقال الحافظُ السخاوي: «إنَّما النَّاسُ بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخُ فمع مَن العَيشُ؟!»[3].

وعن عطاء بن مسلم، عن أبي المليح، قال: سمعت مَيمونًا، يقول: «العلماءُ هم ضالتي في كلّ بلدةٍ، وهم بُغيتي، ووجدت صلاحَ قلبي في مُجالسة العلماءِ»[4].

وعن ابن منبه قال: «طوبى لمن نظر في عَيبه عن عيبِ غيرِه، طوبى لمن تواضعَ لله من غير مَسكنةٍ، ورحم أهلَ الذُّلِّ والمسكنةِ، وتصدَّقَ بمالٍ جمع من

---

(١)– الإرشاد للخيلي (٢/ ٥٩٢).

(٢)– الحلية (٣/ ١٣٤) وكان يقول: «اللهم إنِّي أعوذ بك أن تحسن في لوائع العيون علانيتي، وتقبح في خفيات العيون سريرتي، اللهم كما أسأت وأحسنت إلي فإذا عدت فعد علي».

وكان يقول: «إنَّ قومًا عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار».

(٣)– فتح المغيث (٣/ ٢٩٥)

(٤)– حلية الأولياء (٤/ ٨٥).

غير معصيةٍ، وجالسَ أهلَ العلمِ والحلمِ والحكمةِ، ووسعته السنَّةُ ولم يتعدَّها إلى البدعة»(١).

وعن أبي ثور، قال: «لَمَّا ورد الشافعيُّ العراقَ، جاءني حسين الكرابيسي، وكان يَختلف معي إلى أصحاب الرَّأي، فقال: قد ورد رجلٌ من أصحاب الحديث يتفقَّه، فقم بنا نسخَر به، فقمت، وذهبنا حتى دخلنا عليه، فسأَلَه الحسين عن مسألة، فلم يزل الشافعيُّ، يقول: قال اللهُ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ، حتى أظلمَ علينا البيتُ، فتركنا بدعَتنا، واتَّبعناهُ»(٢).

وقيل: «يحتاجُ في التعلُّم والتفقُّهِ إلى جِدِّ ثلاثةٍ: المتعلِّمُ، والأستاذُ، والأبُ، إن كان في الإحياءِ»(٣).

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ **لأبي يوسف:** «كنت بليدًا أخرجتك المواظبةُ، وإيَّـاك والكسلَ؛ فإنَّـه شؤمٌ وآفـةٌ عظيمةٌ»(٤)، ومنه تعلم حزن أبي حنيفة **على أبي يوسف حينما مرضَ، كما روى الخطيبُ في "الفقيه والمتفقه":** «كان أبو يوسف مريضًا شديدَ المرضِ فعاده أبو حنيفةَ مرارًا فصار إليه آخر مرَّةٍ فرآهُ ثقيلًا فاسترجع، ثمَّ قال: لقد كنت أوأمّلك بعدي للمسلمين، ولئن أصيبَ النَّاسُ بك ليموتنَّ معك علمٌ كثيرٌ»(٥).

وفي "نصيحة أهل الحديثِ": «قيل لأبي حنيفةَ رَحِمَهُ اللهُ: في المسجد حلقةٌ

---

(١)- ذكره أحمد في "الزهد" (٢١٧٦).
(٢)- آدب الشافعي لابن أبي حاتم (ص٥٠).
(٣)- تعليم المتعلم (ص٨٨-٨٩).
(٤)- نفس المصدر (ص٩٢).
(٥)- الفقيه والمتفقه (٢/ ٧٨-٧٩).

ينظرون في الفِقهِ.

فقال: لهم رأسٌ؟

قالوا: لا!

قال: لا يَفقهُ هؤلاء أبدًا»(١).

وقال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا العلماءُ لصارَ النَّاسُ مثل البهائمِ»(٢).

وعن عبد الله بن أبي موسى التستري، قال: قيل لي: «**حيثُ ما كنت فكن قُرب فقيهٍ**»، قال: فأتيتُ بيروت إلى الأوزاعي فبينا أنا عنده إذ سألني عن امرئٍ فأخبرتُه، قال: وكان أسلم، فقال لي: ألك أبٌ؟ قلت: نعم.

قال: فهل لك أن ترجع لعلَّ اللهَ يهديه على يديك، قال: قلت: ترى لي ذاك؟

قال: نعم.

فأتيتُ أبي فوجدتُه مريضًا، فقال لي: يا بني! أي شيءٍ أنت عليه؟ وسائله عن أمره قال: فأخبرتُه أني أسلمتُ.

قال: فقال لي: فاعرُض عليَّ دينك، قال: فأخبرتُه بالإسلام وأهلِه، قال:

---

(١)– نصيحة أصحاب الحديث (ص٤٣).

(٢)– مختصر منهاج القاصدين (ص١٥)، قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة "آداب المعلمين والمتعلمين" (ص٤): «فلولا العلم كان الناس كالبهائم في ظلمة يتخبَّطون وفي غَيّهم يعمهون، فهو النورُ الذي يهتدى به في الظلمات، والحياة للقلوب والأرواح والدين والدنيا.

والبلد الذي ليس فيه من يبين للناس أمر دِينهم ويرشِدُهُم لما ينتابهم مما هم مضطرون إليه، لا خير في الإقامة فيه».

فإنِّي أشهدُكَ أنِّي قد أسلمتُ، قال: فمات في مرضه ذلك فدفنتُه ورجعتُ إلى الأوزاعي فأخبرتُه"(١).

قلتُ: ومنه ما يروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ثلاثٌ مَن كنَّ فيه، ملأَ اللهُ قلبَه إيمانًا: صحبةُ الفقيهِ، وتلاوةُ القرآنِ، والصِّيامُ"(٢).

ولله درُّ ابن وهب حينما قال: «لقيتُ ثلاثمائة عالِمٍ وستين عالِمًا، ولولا مالك واللّيث لضللتُ في العلمِ»(٣).

❒❒❒❒

(١)- انظر: التاريخ الكبير المعروف بـ (تاريخ ابن أبي خيثمة-السفر الثالث). (٣/ ٢٥٠).
(٢)- بهجة المجالس (ص١٩٩).
(٣)- ترتيب المدارك (٣/ ٢٣٠).

ومكانةُ الأستاذِ وأهميَّته في حياة الطَّالب كبيرة

أقلُّها رَفعُ الجهالةَ عن الطَّالب، فضلًا عن حصول السُّمعةِ الطِّيِّبةِ له.

ذكر الحافظُ السيوطي وهو يُناقشُ الشُّروطَ المختلف فيها بالنِّسبة للحديثِ الصَّحيحِ، فقال: «بقي للصَّحيح شروطٌ مختلفٌ فيها: منها ما ذكرَه الحاكمُ من "علوم الحديثِ": أنْ يكون راوِيه مَشهورًا بالطَّلب، وليس مرادُه الشُّهرةُ المخرجةُ عن الجهالَةِ؛ بل قدرٌ زائدٌ على ذلك.

قال عبد الله بن عون: «لا يؤخذُ العِلمُ إلَّا على مَن شهِدَ له بالطَّلب، وعن مالكٍ نحوه.

وفي "مقدمةِ مسلم" عن أبي الزِّناد: «أدركتُ بالمدينة مائة كلّهم مَأمون، ما يُؤخذُ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهلِه»(١).

وقال في "إسعاف المبطأِ برجالِ الموطَّأ"، «سُئِل مالك: أيوْخذُ العِلمُ عمَّن ليس طلب ولا مُجالسة؟

فقال: لا.

فقيل: أَيؤخَذُ ممَّن هو صحيحٌ ثِقةٌ، غير أنَّه لا يَحفظُ ولا يَفهمُ؟ فقال: لا يكتب العِلمَ إلَّا ممَّن يَحفظ، ويكون قد طلبَ وجَالسَ النَّاسَ، وعرفَ وعملَ،

---

(١)– تدريب الراوي (١/ ٨٨–٨٩)، ط: دار العاصمة.

ويكون معه ورعٌ»[١].

وذكر القاضي في "شرف أصحاب الحديث" من كتابه "الإلـماع"، بسندهِ عن أحمد بن مروان الخزاعيّ، أخبرنا صالحُ بن أحمد قال: سمعتُ أبي يقول: «ما النَّاسُ إلَّا مَن قال حدَّثنا وأخبرَنا، ولقد التفتَ المعتصمُ إلى أبي فقال له: كلِّمَ ابن أبي دؤادَ، فأعرضَ عنه أبي بوجهه قال: كيف أُكلِّمُ مَن لم أره على باب عالِمٍ قطّ!؟»[٢].

وفي "الكفاية"، قال ابن جابر: «لا يؤخذُ العِلمُ إلَّا ممَّن شهِدَ له بالطَّلب».

وقال أبو زرعة: فسمعتُ أبا مسهر يقول: «إلَّا جليسَ العالِمِ فإنَّ ذلك طَلبه».

قال الخطيبُ: أراد أبو مسهرٍ بهذا القولِ أنَّ مَن عُرِفت مُجالستُه للعلماء وأخذُه عنهم، أغنى ظهورُ ذلك من أمره أن يسألَ عن حاله، واللهُ أعلم"[٣].

وبخصوص أهميَّةِ الأستاذِ، يقول إمامُ الحرمين:

أخي لن تنالَ العِلمَ إلَّا بستةٍ   سأُنبيكَ عن تفصيلِها ببيانِ
ذكاءٍ، وحرص، وافتقارِ، وغربة   وتلقين أستاذِ، وطولِ زمانِ[٤]

وقد قيل: «مَن دخل في العِلم وحدَه؛ خرجَ وحدَه»[٥].

---

(١)– (ص١٨٠).

(٢)– الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع (ص١٠٦).

(٣)–الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص٨٧).

(٤)–طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ٢٠٨)، ووقع تصحيف، في أول شطر البيت الأول والصواب المثبت.

(٥)–الجواهر والدرر للسخاوي (١/ ٥٨).

وقيل: «مَن لم يكن رُحْلة لن يكون رُحَلَه» (١).

ولذا: فعلى الطَّالبِ أنْ يرحلَ ويسمعَ ويكتبَ عن الشُّيوخ الثِّقاتِ(٢)، حتى يُرحلَ إليه ويُكتبَ عنه -ولا يجعل ذلك نيَّتَه؛ بل لرفع الجهلِ عنه، وإنَّما ذلك لرفع وصمةِ الجهَالَةِ عنه-، فمن لم يَرحل ويَسمع من الشُّيوخ كان مَجهولًا، وفي عدالتِه مَخدوشًا.

وعبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: «سألتُ أبي رَحِمَهُ اللَّهُ عمَّن طلبَ العِلمَ ترى

---

(١)- تذكرة السامع والمتكلم، كما عزاه صاحب "حلية طالب العلم" (ص١٩٧)، ولم أجده في "التذكرة".

(٢)- وعادة أهل الحديث التوثق من حال الشيخ في الأخذ عنه، والسماع له، وكذا السؤال عنه كما روى الدارمي في "سننه" (٤٣٧)، وابن عدي في "الكامل" (١/ ٥٤)، الخطيب في "الرحلة" (ص٧٢) بسندهِ عن أبي العالية، قال: «كنَّا نأتي الرجل، لنأخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها، جلسنا إليه، وقلنا: هو لغيرها أحسن. وإن أساءها، قمنا عنه، وقلنا: هو لغيرها أسوأ». وهذا من أعظم الفقه أن ينظروا لصلاته، ولها مفاهيم بعيدة لا يدرك سرها كل أحد!

أ-وروى الخطيب في "الكفاية" (١٠٨)، عن الحسن بن صالح قال: «كنَّا إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه، حتى يقال لنا: أتريدون أن تزوجوه».

ب-وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يبق من العلم إلا غبرات قليل، في اوعية سوء، فانظروا عمّا تأخذون دينكم» كما في "العلم والحلم" لإياس بن معاوية (ص١٦٣)، وذكره ابن عدي كما في مقدمة "الكامل" (١٣/ ١).

ج-وكان طاووس يعد الحديث حرفًا حرفًا، وقال: «تعلم لنفسك، فإنَّ الناس قد ذهبت منهم الأمانة» كما في "السير" (٥/ ٤٦).

ومن هنا تفهم معنى قول الدارقطني: عن "أحمد بن مروان القطان"، "شيخ من الشيعة حاطب ليل لا يكاد يحدث عن ثقة، متروك». كما في سؤالات البرقاني،(١/ ٣٧٣)، وهذا المبحث طويل يحتاج لكلام وتفصيل وبعون الله أصدره ضمن "بحوث مهمة لطالب السنة" إنْ يسر الله ذلك.

له أنْ يَلزمَ رجلًا عندَه عِلمٌ، فيكتب عنه أو ترى أن يَرحل إلى المواضع التي فيها العِلمُ فيَسمع منهم؟ قال: يرحلُ يكتبُ عن الكوفيين والبَصريين، وأهلِ المدينةِ ومكَّةَ يشام النَّاس يَسمع منهم»(١).

وعن بعضهم، قال: «مَن قنع بما عندَه لم يَعرف سعةَ العِلمِ».

وعن ابن معين قال: «أربعةٌ لا تُؤنسُ منهم رُشدًا، وذكرَ منهم: رجلٌ يَكتبُ في بلده ولا يَرحل»(٢).

قال الحافظُ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ تعالى في ترجمةِ علي بن رضوان المصري الطّبيب (ت ٤٥٣هـ)،(٣) «ولم يكن له شيخٌ، بل اشتغلَ بالأخذ عن الكُتُب، وصنَّفَ كتابًا في تحصيل الصِّناعةِ من الكتب، وأنَّها أوفق من المعلمين، وهذا غلطٌ»، وانظر الموافقات للشَّاطبيِّ فقد ذكر في ذلك كلامًا نَفيسًا(٤).

وكان أبو حيَّان محمَّد يوسف الأندلسيّ (ت ٧٤٥ هـ) إذا ذُكر عندَه ابن مالك، يقول: «أين شُيوخُه؟»(٥).

---

(١)– الرحلة للخطيب (ص٦٨)، ط: المنهاج القويم، وقوله: (يشام الناس)، يعني يتطلع إلى ما عندهم ويتطلعون إلى ما عنده.

(٢)– فتح المغيث (٣/ ٢٨٣).

(٣)– سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٠٥). وانظر: "شرح الإحياء" (١/ ٦٦)، و"بغية الوعاة" (١/ ٢٨٦،١٣١)، و"شذرات الذهب" (٥/ ١١)، و"الغنية" للقاضي عياض (ص١٦-١٧)، وقد ذكرهم الشيخ بكر في "حلية طالب العلم" (ص١٥٩) وهو في كتابي "تقريب الحلية".

(٤)– الموافقات (١/ ١٣٩) "المقدمة الثانية عشرة: من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام".

(٥)– مقدمة التحقيق لكتاب "الغنية" للقاضي عياض (ص١٦– ١٧).

وفي **"ترتيب المداركِ وتقريب المسالكِ"، للقاضي عياض اليحصبي قال في ترجمة " أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي"**: "وبلغني أنَّه كان يُنكرُ على معاصريه من علماء القَيروان سكناهم في مملكة بني عبيد، وبقاؤُهم بين أظهرِهم، وأنَّه كتبَ إليهم مرَّةً بذلك. فأجابوهُ أسكُت لا شيخَ لك! أي لأنَّ درسَه كان وحدَه، ولم يَتفقَّه في أكثر علمِه عند إمامٍ مشهورٍ، وإنمَّا وصلَ الى ما وصلَ بإدراكه، ويُشيرون أنَّه لو كان له شيخٌ يُفقِّهه حقيقةَ الفِقهِ لعَلِمَ أن بقاءَهم مع مَن هناك من عامَّة المسلمين تَثبيتٌ لهم على الإسلام، وبقيةٌ صالحةٌ للإيمان، وأنَّهم لو خرج العلماءُ عن إفريقيةَ لتشرّق من بقي فيها من العامَّة الألف والآلاف فرجَّحوا خيرَ الشرَّين، والله أعلم»[1]

❑❑❑❑

---

(١)– ترتيب المدارك (٧/ ١٠٣) وانظر: أدب الاختلاف (ص١٦٤).

وكان أهلُ الحديثِ يَمتنعون أن يحدِّثوا بحضرةِ شيوخِهم، احترامًا وإجلالًا لهم.

قال ابن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي يُحدِّثُ بالبلدة وبها مَن هو أَولى منه بالحديث فهو أَحمقٌ.

وكان الشعبيُّ إذا حضرَ مع إبراهيمَ لم يَتكلَّم إبراهيمُ.

وقال سفيان الثوري لسفيان بن عيينة ما لك لا تُحدِّثُ؟ فقال: أمَّا وأنت حيٌّ فلا.

قال ابن هبيرة: يَتعيَّن على الحدث أن يُوقِّرَ الشُّيوخَ، وأنَّه إذا رُئِيَ عندهم لم يُزاحمهم بالرِّواية له، فإنَّه يعرضُ أنْ يَعيشَ بعدهم فيروي في حالة عدمهم فيكون ذلك في موقعه، وإن مات قَبلَهم لم تكن تُغني رِوايتُه، لِما يَعرفُه الشُّيوخُ طائلًا، واللهُ أعلم»(١).

وقال إبراهيمُ بن أدهم: «إذا تَكلَّمَ الحدثُ في الحلقة أَيسْنا من خيرِه»(٢).



(١)– الآداب الشرعيَّة لابن مفلح (٢/ ٦٢)، و(٢/ ١٣٧).
(٢)– الفقيه والمتفقه (١/ ٥٠٠).

وكان السَّلفُ يَرحلون إلى العالِمِ يتعلَّمون منه الأدبَ كما يتعلَّمون منه العِلمَ.

وكان بعضُهم يُوصي بعضًا بذلك، ومن ذلك قولُ الإمام أحمد: "حدَّثنا عبدُ الرَّزاق، قال: أهل مكَّةَ يقولون: أخذ ابن جريج الصَّلاةَ من عطاء، وأخذَها عطاءُ من ابن الزُّبير، وأخذَها ابنُ الزُّبير من أبي بكر، وأخذَها أبو بكر من النبي ﷺ، ما رأيتُ أحدًا أحسنَ صلاةً من ابن جريجٍ"(١).

قال الشَّيخُ المحدِّثُ المعلمي اليماني: «كان العلماءُ في العصور الأُولى مُتواصلين على بعد الأقطارِ وصعوبةِ الأسفارِ فلا تكادُ تطلع على ترجمة رجلٍ منهم إلَّا وجدت فيها ذكرَ ارتحالِه في أوان الطَّلب إلى الأقطار النَّائيةِ للقاء العلماءِ، والأخذِ عنهم، وسياحتِه بعد التَّحصي؛ وكلَّما دخل بلدةً سألَ عمَّن بها من العُلماءِ، واجتمعَ بهم واستفادَ منهم وأفادَهم، وبقيَ يواصلهم طولَ عُمرِه بالمكاتبةِ والمراسلةِ، وكانت المكاتباتُ لا تنقطعُ بين علماءِ الأقطارِ لتبادل الأفكارِ في المسائل العلميَّةِ»(٢).

ومن أحوالهم في ذلك: ما رواه الدارمي في "سننه"، عن إبراهيم قال: «كانوا اذا أَتَوا الرَّجلَ ليأخذوا عنه نَظروا إلى صلاتِه وإلى هديِه وإلى سمتِه»(٣).

---

(١)– المسند، مسند أبي بكر رضي الله عنه (١/ ٢٣٦).

(٢)– صفة الارتباط بين العلماء في القديم (ص٢).

(٣)– سنن الدارمي (٤٣٤)، وينظر: حلية الأولياء (٤/ ٢٢٥)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٠).

وقال أبو بكر بن خلَّادٍ، قال: سمعت سفيان بن عييْنَةَ، يقول: حدثني أبي قال: «كنَّا إِذَا قدِمَ داودُ بن أبي هندٍ خرجنَاَ نتلقَّاهُ ننظُرُ إلى هيئتِهِ وسمتِهِ وتشمِيرِه»(١).

وعن الأعمش قال: «كانوا يتعلَّمون من الفقيهِ كلَّ شيءٍ حتى لباسَه ونَعليه»(٢).

وعن محمد بن عيسى قال: «قدمَ ابن المبارك قدمةً فقيل له: إلى أين تريدُ؟

قال: إلى البَصرة.

قيل له: مَن بقيَ؟

قال: ابن عونٍ آخذُ من أخلاقهِ، آخذ من آدابِهِ»(٣).

وعن محمد بن الحسن، روي عن إبراهيم قال: «كنَّا نأتي مَسروقًا فنتعلَّمُ من هديه ودلِّه»(٤).

وعن زائدة بن قدامة الثَّقفي، عن أبي حمزة قال: «قلتُ لرباح أبي المثنى أليسَ قد رأيت عبد الله؟

قال: بلى، وحجَجتُ مع عمر أمير المؤمنين ثلاثَ حجَّات، وأنا رجلٌ، قال: وكان عبد الله وعلقمة يصُفَّان النَّاس صفَّين عند أبواب كندة، فيقرئُ عبدُ الله

(١) –الحلية (٣/ ٩٤).
(٢)– الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ١٤٩)، والسيوطي في "حسن السمت في الصمت" (ص٩).
(٣)– صفة الصفوة (٢/ ٣٥٨)، والآداب الشرعية (٢/ ١٤٩).
(٤)– جامع بيان العلم (٨٢٠).

رجلًا ويقرئُ علقمةُ رجلًا، فإذا فَرِغا تَذاكرا أبوابَ المناسكِ وأبوابَ الحلالِ والحرامِ، فإذا رأيت علقمةَ فلا يَضرُّكَ أَلَّا ترى عبدَ الله، أشبَه النَّاسِ به سمتًا وهديًا، وإذا رأيتَ إبراهيمَ النَّخعي فلا يَضرُّكَ أَلَّا ترى علقمةَ أشبه النَّاسِ به سمتًا وهديًا»(١).

وعن عباس العنبري في ذكر "ابن المديني"، قال: «وكان النَّاسُ يَكتبون قِيامَه، وقعودَه، ولباسَه، وكلَّ شيءٍ يقولُ ويَفعلُ، أو نحو هذا..»(٢).

وقال معاوية بن قرَّة(٣): «لا تجالِس بعلمِك السُّفهاءَ، ولا تجالِس بسفهِك العلماءَ»(٤).

وقال مالك: قال ابن سيرين: «كانوا يَتعلَّمون الهديَ كما يتعلَّمون العِلمَ».

قال: «وبعث ابنُ سيرين رجلًا ينظرُ كيف هديُ القاسم وحالُه»(٥).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام كان أصحابُ عبدِ الله يَرحلون إليهِ فيَنظرون

---

(١)- تاريخ دمشق (٤١/ ١٦٣).

(٢)- تاريخ بغداد (١٣/ ٤٢١).

(٣) -معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني ابن رئاب، الإمام، العالم، الثبت، أبو إياس المزني، البصري، والد القاضي إياس.

حدث عن: والده، وعن: عبد الله بن مغفل، وعلي بن أبي طالب -إن صح إسناده- وابن عمر، ومعقل بن يسار، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، وابن عباس، وعائد بن عمرو المزني، والحسن بن علي، وأنس بن مالك، وغيرهم، انظر ترجمته في "السير" (٥/ ١٥٣).

(٤)- سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٤).

(٥)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٧٩)

إلى سمتِه وهديِه ودله. قال: «فيَتشبهون به»[١].

وذلك لأنَّ ابن مسعود رضي الله عنه كان من أكثرِ النَّاسِ اتباعًا لهدي النبيِّ ﷺ ، وتَشبُّهًا به، **كما روى الذهبيُّ في "معرفة القراء الكبار"، عن حذيفة رضي الله عنه قال:** «ما أعلمُ أحدًا أقرب سمتًا ولا هديًا ودلًا برسولِ الله ﷺ حتى يواريه بيتُه من ابن أم عبد» [٢]، ولأنَّـه كان رفيقًا بطلَّابه، مُعتَنيًا بهم، كما أخرجَه أبو بكر الآجري بسندِهِ، عن هارون بن أبي وكيعٍ، قال: سمعتُ زاذان أبا عمر يقول: «دخلتُ على ابن مسعود فوجدتُ أصحابَ الخز واليمنيةَ قد سبقوني إلى المجلس، فناديتُه: يا عبدَ الله؛ من أجل أنَّي رجلٌ أعمى أدنيتَ هؤلاء وأقصيتَني، فقال: ادنه، فدنوتُ، حتى ما كان بيني وبينَه جليسٌ»[٣].



---

(١)– غريب الحديث (٣/ ٣٨٤)، وقال عقبه: (قوله: إلى سمته) فالسمت يكون في معنيين: أحدهما: حسن الهيئة والمنظر في مذهب الدين، وليس من الجمال والزينة؛ ولكن يكون له هيئة أهل الخير ومنظرهم.
وأما الوجه الآخر: فإنَّ السمت الطريق يقال: الزم هذا السمت كلاهما له معنى جيد يكون أن يلزم طريقة أهل الإسلام، ويكون أن يكون له هيئة أهل الإسلام.
وقوله: (إلى هديه ودله) فإنَّ أحدهما قريب المعنى من الآخر، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك.

(٢)– معرفة القراء الكبار (١/ ٣٥)

(٣)– أخلاق حملة القران (ص٥٢)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء"، في ترجمة "زاذان" (٤/ ٢٠١)، والقرطبي في "تفسيره" (١٢/ ١٥١).

[صورٌ من الاحترام الجزاء من جنس العمل]

وأمَّا صورُ أهلِ العِلمِ في تعظيمِ بعضِهم البعض، وفي تعظيمِ طالِبِهم لمعلِّمهم، وقرينِهم لأخيه؛ فهي كثيرةٌ ووافرةٌ بحمد اللهِ تعالى، ومظانها في كتب التَّراجم والسِّيَر وغيرها، ولا يسعُ المقام حصرها هاهُنا، وإنَّما الذي بين يدَيك جزءٌ مختصرٌ، وعلالةٌ من بلالةٍ، واللهُ الموفق.

قال ابن الجوزيِّ: فاللهَ اللهَ! وعليكُم بملاحظةِ سيَرِ السَّلفِ، ومطالعةِ تصانيفِهم وأخبارِهم، فالاستكثارُ من مطالعة كتُبِهم رؤيةً لهم، كما قال:

فاتني أنْ أرى الدِّيارَ بِطَرفي فلعَلِّي أرى الدِّيارَ بسمعي (١)

وصدقَ القائلُ:

همُ الرجالُ وعيبٌ أن يقالَ لمن لمْ يتَّصِف بمعاني وصفِهم: رجلُ

وذُكِر عند مخلد بن الحسين خلقٌ من أخلاقِ الصَّالحين فقال:

لا تعرضنَّ بذكرِنا في ذِكرِهم ليس الصَّحيحُ إذا مشى كالمقعَدِ(٢)

وخير ما يذكر من نماذجِ طلَّاب العلمِ، الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن عباس ﵄: وهو يقولُ بلسان حالِه ومقالِه: «ذلَلْت طالِبًا فعززت مَطْلُوبًا»(٣).

---

(١)– صيد الخاطر (ص٤٥٤)

(٢)– حلية الأولياء (٨/ ٢٦٦).

(٣)– ذكره الدينوري في "المجالسة" (١٦٣٥)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١/ ١١٧).

فقد كان ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُؤدَّبًا مع شيوخِه ففي "الجامع لأخلاق الراوي" للخطيب بسندِهِ عن عكرمة، **عن ابن عباس، قال**: «لَمَّا قُبِض رسولُ اللهِ ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصار: هلمَّ فلنسأَل أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فإنَّهم اليومَ كثيرٌ، قال: واعجبا لك يا ابن عبَّاس، أترى النَّاسَ يَفتقرون إليك وفي النَّاس من أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ مَن فيهم؟ قال: فتركَ ذاك، وأقبلتُ أنا أسألُ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرَّجلِ فآتي بابَه، وهو قائلٌ فأتوسَّدُ ردائي على بابِهِ تَسفي الرِّيحُ عليَّ من التُّراب؛ فيخرجُ فيقول: يا ابن عمِّ رسولِ اللهِ، ما جاء بك، ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك، فأقولُ: أنا أحقُّ أن آتيك، فأسأله عن الحديث، قال: فعاشَ ذلك الرَّجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمعَ النَّاسُ حولي يَسألوني فيقول: «هذا الفتى كان أعقلَ مِنِّي»[١].

وقال مجاهدُ: ما رأيت أحدًا قطّ مثل ابن عبَّاس، إلَّا أن يقول قائلٌ: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد ماتَ يوم ماتَ، وإنَّه لحبرُ هذه الأمَّةِ»[٢].

-**وكان الجزاءُ**: أنَّ سعيدَ بن جبيرٍ، كان يقول: «كان ابن عبَّاس يحدِّثُني بالحديث، فلو يأذن لي أُقبِّلُ رأسَه لَفَعَلْتُ»[٣].

وممَّا حصل لأبي سلمةَ من الحرمان لأنَّه كان يُجادل[٤] ويُماري ابن عباس،

---

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (٢١٥) (١/ ١٥٨).

(٢)– المعرفة والتاريخ للفسوي، "أخبار عبد الله بن عباس" (١/ ٥٤٠-٥٤١).

(٣)– جامع بيان العلم (١/ ٤٢٦).

(٤)– عن يونس، قال: كتب إلي ميمون بن مهران «إيَّاك والخصومة والجدال في الدين، ولا تجادلن عالمًا، ولا جاهلًا: أمَّا العالم، فإنه يخزن عنك علمه ولا يبالي ما صنعت، وأمَّا الجاهل، فإنَّه يخشن بصدرك ولا يطيعك» رواه الدارمي في "سننه" (١/ ٣٤١)، وابن =

فعن الزّهري رَحِمَهُ اللَّهُ[١]، قائلًا: «كان أبو سلمةَ يُماري ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحُرِمَ بذلك عِلمًا كَثيرًا»[٢]، وهذا فيه خطرُ مجادلَةِ العالِمِ من قِبَل الطَّالبِ، فإنَّ ذلك يضرُّ بالطَّالب ولا يحصل للعالِمِ من ذلك شيءٌ[٣]، فليُنتبَه من ذلك مَنْ جعل مِن هذا الأسلوبِ مَنهجًا وسلوكًا يَتعامَلُ به مع العلماءِ -لا سيَّما في دروسِهم واجتماعِ النَّاسِ حولهم-، فنعوذُ بالله من سوءِ الأَدبِ، وحرمان العِلمِ النَّافعِ.

وكان الصحابيُّ الجليلُ الرَّاوية المعمّر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من خير الشَّواهدِ في التَّأدُّبِ مع النبيِّ ﷺ، فكان مؤدَّبًا معه لشرفه صلواتُ اللهِ عليه إذ أنَّه نبيُّ اللهِ وسيدُ ولدِ آدمَ، وكان يَحترمُه لأنَّه مُعلِّمُه وسيِّدُه، وكتب السِّير والشَّمائل في خصوصِ احترامِ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنبيِّنا الكريم ﷺ في ذلك كثيرة؛ ولكن الشَّاهدُ

= عبد البر في "جامعه" (٦٤٤-٦٤٧)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ٣١٩).

(١)- وقال الزهري: «إن كنت لآتي باب عروة فأجلس، ثم أنصرف فلا أدخل، ولو شئت أن أدخل لدخلت إعظاما له» كما في "الجامع" للخطيب (١/ ١٥٩).

(٢)- التمهيد (٧/ ٦٠)، و"السير" (٤/ ٢٨٨)، ومن طرائف أبي سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ ما ذكره الذهبي في "السير"، وهي:

-قال عمرو بن دينار: قال أبو سلمة: أنا أفقه من بال.

فقال ابن عباس: في المبارك.

-عن ابن لهيعة: عن أبي الأسود، قال: كان أبو سلمة مع قوم، فرأوا قطيعا من غنم، فقال أبو سلمة: اللهم إن كان في سابق علمك أن أكون خليفة، فاسقنا من لبنها. فانتهى إليها، فإذا هي تيوس كلها.

-قال عمرو بن دينار: عن عائشة: أنَّها قالت لأبي سلمة وهو حدث: إنَّما مثلك مثل الفروج، يسمع الديكة تصيح، فيصيح".

(٣)- عن ابن جريج قال: «لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به» كما في "الجامع" لابن عبد البر (١/ ٤٢٣).

التَّعظيمُ الذي حظيَ به أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

-**والجزاءُ الذي نالَه،** فعن ثابتٍ قال قلتُ لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أعطني عينَيك اللَّتين رأيتَ بهما رسولَ اللهِ حتى أُقَبِّلهما»(١).

وهذا سيُّدُ التَّابعين سعيد بن المسيِّب يقول: قلتُ لسعد بن مالك: إنِّي أريدُ أن أسألَك عن شيءٍ وإنِّي أهابُك، قال: "لا تَهبني يا ابن أخي إذا علمتَ أن عندي عِلمًا، فاسألَني عنه قال: قلتُ: قول رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعليّ في غزوة تبوك حين خلفَه فقال سعد، قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عليّ أما تَرضى أن تكون منِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؟**»(٢).

-**والجزاءُ الذي نالَه،** ما قاله عبد الرَّحمن بن حرملة: «ما كان إنسانٌ يجترِئُ على سعيد بن المسيِّب يسألُه عن شيءٍ حتى يَستأذِنَه كما يُستأذَن الأميرُ»(٣).

وهذا الإمامُ أبو حنيفة يقول عن نفسِه: «ثبَتُّ عند حمَّاد بن سليمان فنَبتُّ»(٤) يعني تأدَّبَ بأدَبِه، وأخذَ من علمِه، «ويُحكى أنَّ أبا حنيفةَ أتى حمَّادًا فقال له: ما جاءَ بك؟

قال: أطلبُ الفِقهَ.

قال: تعلَّم كلّ يومٍ ثلاثَ مسائل ولا تزِد عَليها شيئًا حتى يَتَّفقَ لك شيءٌ من العلم ففعل، ولزم الحلقةَ حتى فَقِه، فكان النَّاسُ يُشيرون إليه بالأصابع»(٥).

---

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٨٨).

(٢)– ذكره ابن عبد البر في "جامعه" (١/ ٤٥٧).

(٣)– حلية الأولياء (٢/ ١٧٣)، وصفة الصفوة (١/ ٣٤٦).

(٤)– تعليم المتعلم (ص٧٢).

(٥)– الفقيه والمتفقه (٢٠١/ ٢)، وهذا من فوائد سماع الطالب لنصائحِ أستاذه.

-**فكان الجزاءُ أنَّه** قال: «ما صليتُ صلاةً منذ ماتَ حمَّادُ إلَّا استغفرتُ له مع والديَّ، وإنِّي لأستغفرُ لِمن تعلَّمتُ منه عِلمًا أو علَّمتُه»(١).

-**وكان الجزاءُ له من جنس عَمَلِه،** فهذا أبو يوسف يقول: «إنَّي لأدعو لأبي حنيفةَ قبل أبوَيَّ، ولقد سمعتُ أبا حنيفةَ يقول: "إنَّي لأدعو لحمَّاد مع أبوَيَّ»(٢).

وقال يحيى بن معين: حدَّثنا أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم، وكان يقولُ في دُبرَ صلاتِه: «اللهمَّ اغفر لي ولوالدَيَّ ولأبي حنيفةَ»، وكان يقولُ سمعتُ السَّلفَ يقولون: «مَن لا يعرفُ لأستاذه لا يفلحُ»(٣).

العلمُ مِنْ شرطِهِ لمنْ خدَمَهُ أنْ يجعلَ النَّاس كلهمَ خدمه"(٤)

وكان الإمامُ مالك -إمامُ دارِ الهجرةِ-، يذهبُ إلى شيخه ربيعةَ ويتعلَّمُ من أدَبِه أكثرَ ممَّا يتعلَّمُ من علمِه(٥)؛ بل كان يُوصي طلَّاب العِلمِ بذلك، كما أخرج أبو نعيم في "الحلية"، بسندِهِ، عن خالد -يعني ابن نزار- قال: سمعتُ مالك بن أنس، يقول لِفَتى من قُريش: «يا ابن أخي تَعلَّم الأدبَ قبل أن تتعلَّمَ العِلمَ»(٦)

وقال «إنَّ حقًّا على مَن طلب العلمَ أن يكونَ له وقارٌ وسكينةٌ وخشيةٌ، وأن يكون متَّبعًا لأثرِ مَنْ مَضى قبلَه»(٧).

---

(١)- تاريخ بغداد (١٣/ ٣٣٤).

(٢)- نفس المصدر (١٣/ ٣٤٠).

(٣)- الإرشاد في معرفة علماء الحديث (٢/ ٥٦٩).

(٤) -تعليم المتعلم (ص١٠٤).

(٥)- انظر: "ترتيب المدارك" (١/ ١١٩).

(٦)- حلية الأولياء (٦/ ٣٣٠).

(٧)- الجامع للخطيب (١/ ١٥٦)، وجامع بيان العلم (١/ ٧١٠).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذهبَت حلاوةُ الفِقه منذ ماتَ ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن»(١).

قلتُ: فهذا واللهِ شأن مَن يَحترمُ العلماءَ فإنَّه يَشعرُ بفقدهم، وتُظلِمُ الدُّنيا بعينه من بعدهم(٢).

وقال ابن وهب: «ما نقلنا من أدبِ مالك، أكثر ممَّا تَعلَّمنا من عِلمِه»(٣).

ومن كسب مالك الإمامُ سُحنون، كما قالَه ابن حارث سمعتُهم يقولون:

---

(١)- تاريخ بغداد (٩/ ٤١٤).

(٢)- في "ذيل طبقات الحنابلة" (٢/ ٣٠٠-٣٠١). رثى الشيخ صلاح الدين أَبُو عيسى موسى بْن مُحَمَّد بْن خلف بْن راجح المقدسي الشيخ الجليل والعالم النبيل موفق الدين ابن قدامة، فقال:

لَمْ يبقَ لي بَعْد الموفق رغبة ... فِي العيش إنَّ العيش سم منقع
صدر الزمان وعينه وطرازه ... ركن الأنام الزاهد المتورع
بحر العلوم أَبُو الفضائل كلها ... شمل الشريعة بعده لا يجمع
كَانَ ابْن أَحْمَد فِي مقام مُحَمَّد ... إن هالهم أمر إِلَيْهِ يفزعوا
فيبين مشكله، ويوضح سره ... ويذب عَن دين الإله ويدفع
ببصيرة يجلو الظلام ضباؤها ... يبدي العجائب، نورها يتشعشع
فاليوم قَدْ أضحى الزمان وأهله ... غرضا لكل بلية تتنوع
والعلم قَدْ أمسى كأن بواكينا ... تبكي عَلَيْهِ وحبله ينقطع
وتعطلت تلك المجالس، وانقضت ... تلك المحافل، ليتها لو ترجع
هيهات بعدك يا موفق يرتجي ... لِلنَّاس خير، أَوْ مقال يسمع

وفي "حلية الأولياء" (٩/ ٢٣٤) عن محمد بن إسحاق، قال: "لما مات إسحاق بن إبراهيم وقف رجل على قبره فقال:

وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلسَّحَابِ صَنِيعَهُ... بِإِسْقَائِهِ قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ بَحْرُ.

(٣)- السير (٨/ ١١٣).

كان سُحنون من أيمن العُلماءِ؟ دخل المغربَ، كأنَّ أصحابَه مصابيح، في كلّ بلدةٍ، عدَّ له نحو سبعمائة رجلٍ، ظهروا بصحبتِه وانتفعُوا بمجالسِه(١).

-**وكان الجزءُ** أنَّ الإمامَ محمَّد بن إدريس الشافعيَّ يقول: «كنتُ أصفحُ الورقةَ بين يدَي مالك صفحًا رفيقًا هيبةً له لِئَلَّا يَسمعَ وقعَها»(٢).

والخبرُ أخرجه البيهقي في "مناقب الشافعي" بسندِهِ عن حرملة بن يحيى يقول: سمعتُ الشَّافعيَّ رضي الله عنه يقول -وذكر له أصحابُ الحديثِ وما هم فيه من المجانَّةِ والضَّحكِ وأنَّهم لا يَستعملون الأدبَ-، فقال الشافعيُّ: «يا سبحانَ اللهِ! لو استعملَ أصحابُ الحديثِ ما تقولون لكانوا علماءَ كلَّهم.

ثُّم التفتَ إلينا الشافعيُّ فقال: ما أعلمُ أنِّي أخذتُ شيئًا من الحديث أو القرآنِ أو النَّحوِ أو العربيَّةِ، أو شيئًا من الأشياءِ ممَّا كنتُ أستفيدُه -إلَّا كنت أستعملُ فيه اجتنابَ ما ذَكرتُم، وكنت أفعلُ هذا قديمًا، وكان ذلك طَبعي إلى أن قدمتُ المدينةَ فرأيتُ من مالك بن أنس ما رأيتُ من هيبتِهِ وإجلالِه للعِلم، فازدَدتُ لذلك حتى ربَّما كنت أكون في مجلسِه فأريدُ أن أصفحَ الورقةَ فأصفَحُها صفحًا رقيقًا، هيبةً له؛ لِئَلَّا يَسمعَ وقعَها»(٣).

وقال الشافعيُّ: «كنتُ آتي سفيانَ بن عيينة فلا أُسلِّمُ عليه حتى يكون هو

---

(١)- ترتيب المدارك (٤/ ٧٤) هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، صليبة من المغرب. أصله شامي من حمص، وقدم أبوه سعيد في جند حمص. قال محمد ابنه: قلت: يا أبت أنحن صليبة من تنوخ؟ فقال لي: وما تحتاج إلى ذلك. فلم أزل به، حتى قال لي: نعم. وما يغني عنك ذلك من الله شيئًا، إن لم تتقه، كذا في "ترتيب المدارك".

(٢)- تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (ص٩٨).

(٣)- المناقب (٢/ ١٤٤).

الذي يَبدأني فيلتفتُ إلي، فيقول: كيف أصبحتَ أصلحكَ اللهُ؟ وذلك أنَّه كان إذا بدأَه إنسانٌ بالسَّلامِ ردَّ عليه بضيقٍ: كيف أصبحت؟! كيف أصبحت؟!»(١).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يشيرُ إلى أدبٍ مهمٍّ يحتاجُه الطالب، فقال:** «الِمراءُ في العِلمِ يُقسِّي القلبَ، ويُورثُ الضَّغائِن»(٢).

وكان يقول عبارةً يفيضُ منها الأدبُ والتَّواضعُ الجمُّ، وهي قوله: «إذا رأيتَ رجلًا من أصحاب الحديثِ، فكأنِّي رأيتُ رجلًا من أصحاب النبيِّ ﷺ جزاهم اللهُ خيرًا، هم حفظوا لنا الأصلَ، فلهم علينا الفضلُ"(٣).

وروى ابن أبي حاتم قال: سمعت الرَّبيع، قال لي الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أردت أن أضع على كلِّ مخالفٍ كتابًا كبيرًا لفعلتُ، ولكن ليس الكلامُ من شأني، ولا أحبُّ أن يُنسبَ إليَّ منه شيءٌ»(٤).

وقال: «ما ناظرتُ أحدًا فأحببتُ أن يُخطئَ، وما في قلبي من عِلمٍ إلَّا وددتُ أنَّـه عند كلِّ أحدٍ، ولا يُنسبَ إليَّ»(٥).

ومن وصاياهُ، قوله: «مَن أحبَّ أن يَفتح اللهُ قلبَه ويَرزقَه العِلمَ فعليه بالخلوَة، وقلَّةِ الأكلِ وتركِ مخالطةِ السُّفهاءِ، وبعض أهل العلمِ الذين ليس معهم إنصافٌ ولا أدبٌ»(٦).

---

(١)– مناقب الشافعي (٢/ ١٤٥).

(٢)– منازل الأئمة الأربعة، لأبي بكر الأزدي (ص٢١٤).

(٣)–سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٩–٦٠)، وانظر: "حلية الأولياء" (٩/ ١٠٩).

(٤)– تاريخ ابن عساكر (٥١/ ٣٧١).

(٥)– آداب الشافعي ومناقبه (ص٦٨).

(٦)– بستان العارفين للنووي (ص٢٧٠) ط: دار البشائر.

وعن الحميدي قال: قال محمَّد بن إدريس الشافعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، «كنت يَتيما في حِجرِ أمِّي فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تُعطي المعلِّمَ، فكان المعلِّمُ قد رضي منِّي أنْ أخلفَه إذا قام، فلمَّا ختمتُ القرآنَ دخلتُ المسجدَ فكنت أجالسُ العُلماءَ، وكنت أسمعُ الحديثَ أو المسألةَ فأحفظها، ولم يكن عند أمِّي ما تُعطيني أن أشتري به قَراطيسَ قطّ، فكنت إذا رأيتُ عَظمًا يلوحُ آخذُه فأكتبُ فيه، فإذا امتلأَ طرحتُه في جرَّةٍ كانت لنا قديمًا، قال: ثمَّ قَدِم والٍ على اليمن فكلَّمَه لي بعض القرشيين أنْ أصحبَه ولم يكن عند أمِّي ما تُعطيني أتحمّل به، فَرَهَنَتْ دَارها بستة عشر دينارًا فأعطتني فتحمّلت بها معه، فلمَّا قدِمنَا اليمنَ استعملَني على عملٍ فحمدت فيه، فزادني عملًا فحمدت فيه، فزادني عملًا وقَدِم العمّارُ مكَّةَ في رجبٍ فأثنوا عليَّ، فطارَ لي بذلك ذكرٌ، فقدمتُ من اليمن فلقيتُ ابن أبي يحيى فسلمتُ عليه فوبَّخني وقال: تجالسونا وتُصنعون وتَصنعون، فإذا شرع لأحدكم شيءٌ دخل فيه، أو نحو هذا من الكلام، قال: فتركته ثمَّ لقيتُ سفيان بن عيينة فسلَّمتُ عليه فرحَّبَ بي، وقال: قد بلغتنا ولايتك، فما أحسن ما انتشر عنك وما أديت كلّ الذي لله عليكَ، فلا تعد، قال: **فكانت مَوعظةُ سفيان إياي أبلغُ ممَّا صنعَ بي ابن أبي يحيى**»[1].

- **وكان جزاءُ** الإمام الشافعي بسبب هذا الصَّبرِ والاحتمالِ، والأدبِ والإجلالِ، والإنصافِ وحسنِ الأخلاقِ، ما قاله تلميذُه الرَّبيعُ: «والله ما اجترأتُ أن أشربَ الماءَ، والشافعيّ يَنظرُ إليَّ هيبةً له»[2].

---

(١)– ذكره في "جامع بيان العلم" (٦٠٣) (١/ ٤١٣).

(٢)– المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٩٠).

وهذا جزءٌ من الوقار الذي كان يَحصل في مجلسِه، وأمثلةُ ذلك كثيرة، ومنها ما ذكره الخطَّابي في "العزلة"، بسندِهِ عن علي بن يحيى الورَّاق: " كان الشافعي رحمةُ الله عليه رجلًا عطرًا وكان يَجيءُ غلامُه كلّ غداةٍ بغالية فيَمسح بها الاسطوانة التي يجلس إليها، وكان إلى جَنبه إنسان من الصوفيَّةِ، وكان يُسمَّي الشافعيَّ البطالَ يقول: هذا البطالُ، وهذا البطالُ.

قال: فلمَّا كان ذات يومٍ عمد إلى شاربِه فوضع فيه قذرًا، ثمَّ جاء إلى حلقةِ الشافعيّ، فلمَّا شمَّ الشافعيُّ الرَّائحةَ أَنكرَها، وقال: فتِّشوا نِعالكم فقالوا: ما نرى شيئًا يا أبا عبد الله.

قال: فليفتِّش بعضكم بعضًا، فوجدوا ذلك الرَّجل فقالوا: يا أبا عبد الله هذا.

فقال له: ما حمَلك على هذا؟

قال: رأيتُ تجبُّرك فأردتُ أن أتواضعَ لله عزَّ وجلَّ!

قال: خذوه فاذهبوا به إلى عبد الواحدِ، وكان على الشّرطة، فقولوا له: قال لك أبو عبد الله اعتقل هذا إلى وقت ننصرف.

قال: فلما خرجَ الشافعيُّ دخل إليه فدعا به فضرَبه ثلاثين دِرَّةً أو أربعين دِرَّةً، قال: هذا إنَّما تخطَّيت المسجدَ بالقذرة وصلَّيتَ على غير الطَّهارةِ"(١).

۞

(١)–العزلة، "باب في آفات القراء" (ص٢٢٣) ط: دار ابن كثير.

۞ **ومن هنا تعلمُ أنَّ مَن يَطعنُ بالعلماء، أو يَسوءُ الأدبَ معهم، أو يتكلَّم فيهم بلا موجبٍ شرعيٍّ أو مسوغٍ علميٍّ مع وجوب التقيدِ بالحكمة الشرعيَّةِ، والاتصافِ بالإنصافِ الذي هو حلَّةُ الإشرافِ في الحكم على الرِّجال** إنمَّا هو مُتعالمٌ جاهلٌ جهولٌ.

-**وكان الجزاءُ** أنَّ الإمامَ أحمد يدعو له، وقد قال في ذلك: «ما بتُّ منذ ثلاثينَ سنَةً، إلَّا وأنا أدعو للشافعيّ، وأستغفر له»(١).

وقال مرَّةً لولد الإمام الشافعيّ: «أبوك من الستَّةِ الذين أدعو لهم كلّ ليلةٍ وقتَ السَّحرِ»(٢).

وروى الخطيبُ في "تاريخه" بإسناده، عن عبد الله بن محمّد بن زياد قال: سمعتُ الميموني بالرقة، يقول: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: «ستةٌ ادعو لهم سحرًا أحدُهم الشَّافعي»(٣).

وفي "سيرة الإمام أحمد"، إدريس بن عبد الكريم، قال: قال لي سلمة بن عاصم: أريدُ أن أسمعَ كتاب العدد من خَلَف، فقلت لخلف: قال: فليجِئ، فلمَّا دخل رفعه لأن يجلسَ في الصَّدر، فأبى، وقال: لا أجلسُ إلَّا بين يدَيك، وقال: هذا حقُّ التَّعليمِ، فقال له خَلَف: جاءَني أحمدُ بن حنبل يَسمع حديثَ أبي عوانة،

---

(١)– إحياء علوم الدين (١/ ٢٦) وفي "الانتقاء في فضل الأئمة الثلاثة الفقهاء" (ص٧٢) قال يحيى بن سعيد القطان: «إنِّي لأدعو للشافعي في الصلاة وغيرها منذ أربع سنين لما أظهر من القول بما صح عنْ رسول الله ﷺ».

(٢)– صيد الخاطر (ص٣٠) بتصرف يسير.

(٣)– انظر: تاريخ بغداد (٢/ ٦٦).

فاجتهدتُ أن أرفعَه، فأبى وقال: «لا أجلسُ إلَّا بين يدَيك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلَّم منه»(١).

وقال أبو زرعة: كنت عند أحمدَ بن حنبل، فذكرَ إبراهيم بن طهمان، وكان مُتَّكِئًا من علَّةٍ، فجلس وقال: «لا يَنبغي أن يُذكر الصَّالحون فيُتَّكَأ»(٢).

قال أبو الحسن بن العطار(٣): «رأيتُ أحمد بن حنبل يأخذ لداود بن عمرو بالرّكاب»(٤).

وعن عباس بن عبد العظيم العنبري أخبرني، قال: "كنتُ عند أحمد بن حنبل وجاءَه علي بن المديني راكبًا على دابَّةٍ، قال: فتناظرا في الشَّهادة وارتفعَت أصواتُهما حتى خِفتُ أن يقعَ بينهما جفاء وكان أحمد يَرى الشَّهادةَ وعلي يأبى ويَدفع، فلمَّا أرادَ علي الانصرافَ قام أحمد فأخذَ بركابه، وسمعتُ أحمد في ذلك المجلس يقول: «لا تنظر بين أصحاب محمَّد ﷺ فيما شجر بينهم ونكِلُهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والحجَّةُ في ذلك حديثُ حاطب»"(٥).

---

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (٣٤٤) (١/ ١٩٨).

(٢)– طبقات علماء الحديث (١/ ٣١٧)، و "تاريخ بغداد" (٦/ ١١٠).

(٣)– داود بن عمرو بن زهير بن عمرو بن جميل، أبو سليمان الضبي البغدادي الثقة، محدث بغداد، انظر: "طبقات علماء الحديث" لابن عبد الهادي (٢/ ١١٦-١١٧).

(٤)– تاريخ بغداد (٨/ ٣٦٤)، وله في ذلك سلف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥)– جامع بيان العلم (٢/ ٩٦٨)، قال ابن عبد البر معلقًا: "كان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يرى الشهادة بالجنة لمن شهد بدرًا أو الحديبية أو لمن جاء فيه أثر مرفوع على ما كان منهم من سفك دماء بعضهم بعضًا، وكان علي بن المديني يأبى ذلك ولا يصحح في ذلك أثرًا".

وفي **"السير"، قال ابن إياس**: كان محمَّد بن أحمد بن أبي المثنى يحيى التميمي من أهل الفضلِ والفِقهِ، ومن آدب مَن رأينا من المحدِّثين، كان أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين يُكرمونَه، إلى أن قال: وكانت الرِّحلةُ إليه بالموصل بعد علي بن حرب، سمعتُه يقول: خرج أحمدُ بن حنبل يومًا، فقمتُ، فقال: أما علمتَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَن أحبَّ أن يَتمثِل له الرِّجالُ قيامًا فليتبوَّأ مقعدَه من النَّار**».

فقلت: إنَّما قمتُ إليك، ولم أقم لك، فاستَحسن ذلك(١).

وعن يحيى بن منصور القاضي، سمعتُ خالي عبد الله بن علويه، سمعتُ محمد بن سهل بن عسكر يقول: «كنَّا عند أحمد بن حنبل، إذ دخلَ عليه محمَّد بن يحيى، فقام إليه، وقربَ مجلسَه، وأمرَ بنيه وأصحابَه أنْ يكتبوا عنه»(٢).

-**وكان الجزاءُ** ما ذكره الذهبيُّ في "السير"، عن الحسين بن إسماعيل، عن أبيه، قال: «كان يجتمعُ في مجلس أحمد زهاء(٣) خمسة آلاف -أو يَزيدون نحو خمس مائة- يكتبون، والباقون يَتعلَّمون منه حسن الأدبِ والسَّمتِ»(٤).

---

(١)- سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٤٠)، ومحمد هذا "نسيب أبي يعلى الموصلي، وخاله" وكان من أهل الأدب فاستحق هذا التكريم، "كما قال ابن إياس: كان من أهل الفضل والفقه، ومن آدب من رأينا من المحدثين" وهكذا الجزاء كان من جنس العمل. والحديث صحيح أخرجه أبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٧٥)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٩٩٧).

(٢)- المصدر نفسه (١٢/ ٢٨٠) محمد بن يحيى هو الذهلي، جمع علم الزهري، وصنفه، وجوده، من أجل ذلك يقال له: الزهري، ويقال له: الذهلي.

(٣)- قوم ذوو زهاء، أي: "ذوو عدد كثير".

(٤)- انظر: سير أعلام النبلاء" (١١/ ٣١٦-٣١٧) بتصرف يسير، ومن باب ذكر الشيء =

وقال عبد الوهاب الورَّاق: «أَبُو عَبْدِ اللهِ أحمد بن حنبل إمامنا وهو من الرَّاسخين في العلم، إذا وقفت غدًا بين يدي اللهِ تعالى فسألني بمن اقتديت أقول بأحمد، وأيّ شيءٍ ذهب عَلَى أبي عبد الله من أمر الإسلامِ؟ وقد بلي عشرين سنة في هذا الأمرِ»(١).

ومنهم الإمامُ المحدِّثُ عبد الله ابن المبارك، ويذكرُ أنَّ ابن المبارك سُئِل بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة، فقال: «إنَّا نُهينا أن نتكلَّمَ عند أكابرنا»(٢).

وقال إسماعيل الخطبي: بلغني عن ابن المبارك: أنَّه حضر عند حماد بن زيد، فقال أصحاب الحديثِ لحمّاد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدِّثَنا.

فقال: يا أبا عبد الرَّحمن! تحدِّثهم، فإنهَّم قد سَألوني؟

قال: سبحان الله! يا أبا إسماعيل، أحدِّثُ وأنت حاضرٌ.

فقال: أقسمتُ عليك لتفعلنَّ.

فقال: خذوا، حدَّثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدَّث بحرفٍ إلَّا عن حماد"(٣).

= بالشيء، ففي الجامع لأخلاق الراوي (٦٩٥) (١/ ٣١٨) عن حمدان بن علي الوراق، قال: ذهبنا إلى أحمد بن حنبل سنة ثلاث عشرة فسألناه أن يحدثنا فقال: «تسمعون مني ومثل أبي عاصم في الحياة؟ اخرجوا إليه».

(١)- طبقات الحنابلة (١/ ١٣)

(٢)- سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٠)

(٣)- سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٨٢-٢٨٣) و" تاريخ بغداد" (١٠/ ١٥٥)، وإسماعيل الخطبي هو إسماعيل بن علي بن إسماعيل الخطبي أبو محمد، نسبة إلى الخطب وإنشائها.

-فكان الجزاءُ، ما قاله الحسن بن علي الخلال: " كنَّا عند معتمر بن سليمان يحدِّثنا إذ أقبل ابن المبارك فقطعَ معتمر حديثَه، فقيل له: حدِّثنا، فقال: «إنَّا لا نتكلَّمُ عند كُبرائِنا»[١].

وقال المسيّب[٢]: «ورأيتُ أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعدًا يسألُه»[٣].

ومنهم إبراهيم النّخعي[٤]، فعن عن سلمة بن كهيل، قال: «كان إبراهيمُ والشعبيُّ إذا اجتمعا لم يتكلَّم إبراهيمُ بشيءٍ لِسنهِ»[٥].

-فكان الجزاءُ، ما قاله مغيرة: «كنَّا نهابُ إبراهيمَ كما يُهابُ الأميرُ»[٦].

---

(١)- الجامع لأخلاق الراوي (٧٠٦) (١/ ٣٢٠)

(٢)- ترجم له الذهبي: "المسيب بن واضح بن سرحان السلمي التلمنسي الإمام، المحدث، العالم، أبو محمد السلمي، التلمنسي؛ نسبة إلى قرية من قرى حمص (حاليًا تقع في محافظة إدلب السورية). قال ابن عدي: وسمعت الحسين بن عبد الله القطان يقول: سمعت المسيب بن واضح يقول: خرجت من تلمنس أريد مصر للقاء ابن لهيعة، فأخبرت بموته"، وكان النسائي حسن الرأي فيه، ويقول: "الناس يؤذوننا فيه".

حدث عنه: ذو النون المصري -مع تقدمه- وأبو زرعة، وأبو حاتم، ومحمد بن تمام البهراني، وأبو عروبة الحراني، والحسن بن سفيان، وأبو بكر بن أبي داود، وأحمد بن هشام بن الليث الفارسي، وآخرون" كما في "سيره" (١١/ ٤٠٣).

(٣)- السير (٨/ ٣٩٠).

(٤)- قال الذهبي في "تذكرة الحفاظ" "إبراهيم النخعي فقيه العراق أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود الكوفي الفقيه: روى عن علقمة ومسروق والأسود وطائفة ودخل على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو صبي، وكان من العلماء ذوي الإخلاص، وكان يتوقى الشهرة ولا يجلس الى الإسطوانة".

(٥)- الجامع لأخلاق الراوي (٧٠٣).

(٦)- تذكرة الحفاظ (١/ ٥٩).

[من صور أهل العلم في الأدب والتوقير]

وأقصُّ عليك بعضًا من صورهم في تعظيمهم واحترامِهم لبعضِهم، فكن مُتشبِّهًا بهم إن لم تكن مثلهم، فـ «مَن تشبَّه بقومٍ فهو منهم»(١)، وسوف تجدُ من أحوالهم ومقالهم الشَّيءَ العجيبَ، فلله درُّهم وعلى الله أجرُهم، واللهَ أسألُ أن يلحقنا بهم وبصفِّهم غير خزايًا ولا ندامى.

-فمن توقيرهم وتعظيمِهم.

ما قاله سعيد بن المسيِّب: قلت لسعد بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنِّي أريدُ أن أسألكَ عن شيءٍ، وإنِّي أهابُك»(٢).

وقال أيوب السختياني: «كان الرَّجلُ يجلسُ إلى الحسن البصريّ ثلاثَ سنين؛ فلا يَسألُه عن شيءٍ هيبةً له»(٣).

وقال أبو عاصم: «كنَّا عند ابن عون وهو يحدِّث، فمرَّ بنا إبراهيم بن عبد الله بن حسن في موكبه، وهو إذ ذاك يدعى إمامًا بعد قتل أخيه محمّد، فما جسر أحدٌ

---

(١)- رواه أحمد (٥١١٥)، وأبو داود (٤٠٣١) والبيهقي في "الشعب" (١١٩٩)، وقال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٤/ ١٧٧) عن سند أبي داود، «وهذا إسناد جيد، فإنَّ ابن أبي شيبة، وأبا النضر، وحسان بن عطية؛ ثقات مشاهير أجلاء، من رجال الصحيحين، وهم أجل من أن يحتاج إلى أنْ يقال: هم من رجال الصحيحين».

(٢)- وله نظير ابن عباس وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في قصة مشهورة مزينة بالأدب والعلم.

(٣) -ذكره في الحلية (٣/ ١١).

أن يَلتفت للنَّظر إليه فضلًا عن أنْ يقومَ هيبةً لابن عون».

ويُحكى أنَّ البساطي العلَّامة لم يَنقطع عن المجيء لشيخه في يوم اجتيازِ السُّلطان دون رفقائه؛ فإنَّهم تركوا الدَّرسَ لأجل التَّفرُّجِ عليه، فأبعدهم الشَّيخُ تأديبًا وقرَّبَه.

وعن البخاري، قال: «ما رأيتُ أحدًا أَوْقَرَ للمحدِّثين من ابن مَعين».

وممَّا قيل في مالك:

يَدَعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى فَهْوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

وعن شعبة، قال: «ما كتبت عن أحد حديثًا إلَّا وكنت له عبدًا ما حيي».

وفي لفظٍ: «ما سمعتُ من أحدٍ إلَّا واختلفت إليه أكثر من عدد ما سمعتُ».

وعن أبي حامد أحمد بن حمدون القصار، يقول: «سمعتُ مسلم بن الحجَّاج وجاءَ إلى محمَّد بن إسماعيلَ البخاريّ فقبَّلَ بين عينَيه، وقال: دَعني حتى أقبِّلَ رجلَيك! يا أستاذ الأستاذين، وسيِّدَ المحدِّثين، وطبيبَ الحدِيثِ في علله»[(١)].

وكان الإمام ابن خزيمة يُضرَبُ به المثلُ في الأدب لا سيَّما مع شيخِه أبي عبد الله محمَّد بن إبراهيم البوشجني (ت٢٩٠)، سُئِل عن مسألةٍ وهو جنازته، فقال: لا أُفتي حتى أُواري أستاذي التُّرابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

---

(١)- تاريخ بغداد (١٣/١٠٢)، ورواه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١٢/ ٤٣٢)، والنووي في "تهذيب الأسماء" (١/ ٩٦).

(٢)- ينظر: الطبقات الكبرى (١٨٨/٢)، وأصله في "طبقات الشافعية الكبرى" =

وكان الشيخ زكريا الأنصاري الشافعي إذا ورد عليه الشيخ ربيع السلمي أو زوجته أو أحد من أقاربه يجله في زمن صمدته ومنصبه، وكان يقضي حوائجهم، ويعترف بالفضل لهم، وربما مازحته زوجة الشيخ ربيع التي ربته[(١)].

وعن عبد الله بن أحمد، سمعتُ أبي يقول: قدمتُ صنعاءَ، أنا ويحيى بن مَعين، فمضيتُ إلى عبدِ الرَّزاقِ في قريته، وتَخلَّفَ يَحيى، فلمَّا ذهبتُ أَدقُّ البابَ، قال لي بقال تجاه داره: مَه، لا تَدقّ، فإنَّ الشَّيخَ يُهابُ.

فجلستُ حتى إذا كان قبل المغربِ، خرجَ، فوثبتُ إليه، وفي يدي أحاديثُ انتقيتُها، فسلَّمتُ، وقلت: حدِّثني بهذه -رحمكَ اللهُ- فإنِّي رجلٌ غريبٌ.

قال: ومَن أنت؟ وزبرني.

قلت: أنا أحمدُ بن حنبل.

قال: فتقاصرَ، وضمَّني إليه، وقال: بالله أنت أبو عبدِ الله؟ ثمَّ أخذَ الأحاديثَ، وجعلَ يَقرؤُها حتى أَظلَم[(٢)].

❊

= (٢/ ١٩١)، وبالاستفادة عن "آداب المتعلم اتجاه المعلم" (ص٥٠).

(١) -انظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/ ١٩٨).

(٢)- سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٢).

۞ **ومن صورهم أنهم كانوا يعظِّمون العلماءَ ويحترمونَهم كما يَحترمون الأمراءَ.**

ومن عواقب هذا الاحترامِ، أنَّهم كانوا ربَّما امتنعوا عن السُّؤال لسنين؛ وذلك هيبةً وتوقيرًا لشيوخهم، كالذي حصل مع ابن عباس وعمر رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيب وسعد بن مالك رضي الله عنه، وأحمد وشيخه هُشَيْم بن بشير، وغيرهم.

وعن سفيان عن الاعمش ومغيرةَ قالا: «كنَّا نهاب إبراهيمَ هيبةَ الأميرِ»(١).

قال عباس: وأبو هشام هذا هو مغيرة الضبي. قال عباس: وكان مغيرة أعمى»(٢).

وقال عيسى بن يونس: «ما رأيتُ الأغنياءَ والسَّلاطين عند أحدٍ أحقرَ منهم عند الأعمش مع فقرِه وحاجتِه»(٣).

وقال أبو زكريا العنبري: «شهدتُ جنازةَ الحسين القباني، فصلَّى عليه أبو عبد الله البوشنجي، فلما أراد الانصرافَ قدمَت دابَّتُه، فأخذ الحافظُ أبو عمرو الخفاف بلجامه، وأخذ الإمام ابن خزيمة بركابه، وإبراهيم بن أبي طالب والجارودي يسوّيان ثيابَه، فلم يمنعهم من ذلك. وحضر البوشنجي مرَّةً عند

---

(١)- انظر: العلل لأحمد (٥/ ١٢٢)، و"تاريخ ابن معين" رواية الدوري (٢٥٦٥) وإبراهيم هو "إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النخع من مذحج، ويكنى أبا عمران، وكان أعور"، وانظر في "الطبقات" لابن سعد (٩/ ٢٦٨).

(٢)- معجم ابن الأعرابي (١٧٧٦) (٤/ ٢٨٦).

(٣)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٥٦).

داود بن علي الظاهري، فأكرمَه، وقال: جاءكم مَن يفيدُ ولا يستفيدُ»[١].

وقال محمد بن عبد الوهّاب الفرّاء: «كنَّا نهابُ أبا نعيمٍ أشدَّ من هيبةِ الأميرِ»[٢].

وعن أبي محمد بن أبي حاتم، قال: سمعتُ محمّد بن مُسلم، يقول: «كنَّا نهابُ أن نُراد أحمد بن حنبل في الشيءِ أو نُحاجَه في شيءٍ من الأشياءِ. يعني لجلالتِه ولهيبةِ الإسلامِ الذي رُزقَه»[٣].

وعن أبي عبيد القاسم بن سلَّام قال: «جالستُ أبا يوسف ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي فما هبت أحدًا منهم ما هبت أحمد بن حنبل، ولقد دخلت عليه في السجن لأسلِم عليه فسألني رجلٌ عن مسألةٍ فلم أجبه هيبة له»[٤].

وقال موسى بن إسماعيل: «ما رأيتُ حمّاد بن سلمة يُعظِّم أحدًا تعظيمَهُ

---

(١)– طبقات علماء الحديث (٢/ ٣٦٩)، وفي "تهذيب الكمال" (٢٤/ ٣١٠) "عن دعلج بن أحمد السجزي قال: حدثني بعض الفقهاء من أصحاب داود أنهم حضروا مجلس داود بن علي يوما ببغداد فدخل عليه المجلس رجل جلس آخر الناس، ثمَّ إنَّه كلم داود بن علي في بعض ما كان يتكلم به، فتعجب داود من حسن كلامه، فقال: لعلك أبو عبد الله البوشنجي؟ قال: نعم، فقام داود بنفسه إليه وأخذ بيده حتى أجلسه إلى جنبه، وقال لأصحابه: قد حضركم من يفيد ولا يستفيد".

(٢)– تذكرة الحفاظ (٣٦٩) (١/ ٣٧٢)، وفي "سير أعلام النبلاء" (١٠/ ١٥١) وأبو نعيم هو: "أبو نعيم الفضل بن دكين الكوفي ثبت، سمع منه جماعة منهم: أحمد وإسحاق ويحيى بن معين والذهلي والبخاري والدارمي".

(٣)– مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٩١).

(٤) –صفة الصفوة (٢/ ٣٣٩).

جريرَ بن حازم»(١).

وقال محمد بن سيرين عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى: «جلستُ إليه وأصحابُه يعظِّمونَه كأنَّه أميرٌ»(٢).

وكان ابن مهران عبد الرَّحمن بن محمد البغدادي شيخًا معظَّمًا، ذكره لي أبو العلاء الواسطي يومًا فأطنبَ في وصفه، وقال: «كان الدارقطنيُّ والشيوخُ يعظِّمونَه»(٣).

وقال أبو بكر الصبغي: «ما رأيت في المحدثين أهيبَ من إبراهيمَ بن أبي طالب، كنَّا نجلس بين يدَيه وكأنَّ على رؤُوسنا الطَّيرَ.

وبينا نحن في مسجده، إذ عطسَ أبو زكريا العنبري، فأخفى عُطاسَه، فقلت له: قليلًا قليلًا، لا تُخفِ فلست بين يدي اللهِ -عزَّ وجلَّ-.

قال أبو الفضل: كان إبراهيم بن أبي طالب يهابُ بمرة، وكان لا يحضر مجلسَ القضاةِ إلَّا لشهادةٍ تلزمُه»(٤).

وعن شعبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** «ما كتبتُ عن أحدٍ حديثًا إلَّا وكنت له عبدًا ما حيي، وقال ابن المنكدر: ما كنَّا نسمّي راوي الحديث والحكمةِ إلَّا العالِمَ»(٥).

وقال قتيبة: «ما رأيت وكيعًا يُعظِّمُ أحدًا تعظيمَه هنادًا، ثمَّ يَسأله عن

---

(١)– ينظر: طبقات علماء الحديث (١/ ٣٠٠)، وتهذيب الكمال (٤/ ٥٢٨).

(٢)– طبقات علماء الحديث (١/ ١١٧).

(٣)– السير (١٦/ ٣٣٦).

(٤)– سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٤٩).

(٥)– فتح المغيث (٢/ ٣٨٨)

الأهل»(١).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنا عبدُ من علَّمني حرفًا واحدًا، إن شاء باعَ، وإن شاءَ استرقَّ»(٢).

وعن أحمد بن سنان القطان، قال: «كان عبد الرَّحمن بن مهدي لا يَتحدَّث في مجلسه، ولا يُبرى فيه قلمٌ، ولا يَبتسم أحدٌ، فإن تحدَّث أو برى قلمًا، صاحَ ولبس نعلَيه ودخل، وكذا يفعل ابن نمير، وكان من أشدِّ النَّاس في هذا، وكان وكيعٌ(٣) أيضًا في مجلسه كأنَّهم في صلاةٍ، فإن أنكرَ من أمرهم شيئًا انتعلَ ودخل، وكان ابن نمير يغضبُ ويصيحُ، وكان إذا رأى مَن يَبري قلمًا، تغيَّر وجهُه»(٤).

لهذا فإنَّنا نريدُ هذه الآدابَ تتحوّل إلى واقع نعيشُهُ، فكم نشاهدُ اليوم من الطَّلبة مَن يكلِّمُ صاحبَه، و آخرُ يغفلُ عن الدَّرس ويشردُ، وغير ذلك من الحركاتِ والأشياءِ الزَّائدةِ التي لا تَجني إلَّا التَّشاغلَ المذموم، وعدم التَّوقيرِ المطلوب.

قال عبد الله بن أحمد: «سمعتُ أبي سئل: لِمَ لَمَ تسمعُ من إبراهيم بن سعد كثيرًا، وقد نزل في جوارِك بدار عمارة؟

---

(١)- طبقات علماء الحديث (٢/ ١٧٨).

(٢)- تعليم المتعلم (ص٧٥).

(٣)- وفي "السير" (٩/ ١٥٥) قال سلم بن جنادة: «جالست وكيعًا سبع سنين، فما رأيته بزق، ولا مس حصاة، ولا جلس مجلسًا فتحرك، وما رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله».

(٤)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٩٣)، والسير للذهبي في "ترجمة وكيع" (٩/ ١٥٤).

فقال: حضرنا مجلسَه مرَّةً فحدَّثنا، فلما كان المجلسُ الثَّاني، رأى شبابًا تقدَّموا بين يدَي الشُّيوخ، فغضب، وقال: واللهِ لا حدَّثت سنةً.

فمات ولم يُحدِّث»[١].

وقال جعفر بن أحمد الحافظُ: «ما رأيت في المحدِّثين أهيبَ من محمّد بن رافع، كان يَستندُ إلى شجرة الصَّنوبرِ في داره، فيجلسُ الغلمان[٢] بين يدَيه على مراتبهم، وأولادُ الطاهريَّة ومعهم الخدمُ كأنَّ على رؤُوسهم الطَّير، فيأخذ الكتابَ، ويقرأُ بنفسه، ولا يَنطقُ أحدٌ ولا يَتبسمُ إجلالًا له، فإن نطقَ أحدٌ قام»[٣].

وقال إسحاقُ بن إبراهيم بن أبي حبيب الشَّهيد: «كنت أرى يحيى القطّان يُصلِّي العصرَ، ثمَّ يَستندُ فيقفُ بين يدَيه؛ علي بن المديني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعين، والشاذكوني، وعمرو بن علي -الفلَّاس-، يَسألونه عن الحديث وهم قِيامٌ هيبةً له»[٤].

قال العلموي الدمشقي الشافعي(ت٩٨١هـ): مُعلِّقًا في كلام له، ومنه قوله: «لا يحبُّ ذلك لنفسه؛ وإنَّما للسرِّ المودعِ فيه من العلمِ، ولتهذيبِ أخلاقِ الطَّلبةِ وصونهم عن التَّكبُّر، وتَخلُّقَهم بالتواضع، واللهُ أعلم»[٥].

---

(١)- السير للذهبي (١١/ ٣١٧).

(٢)- في "التذكرة" و"السير" (العلماء).

(٣)- ينظر: طبقات علماء الحديث (٢/ ١٨١)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٢١٦).

(٤)- انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٢١٩).

(٥)- العقد التليد في اختصار الدر النضيد أو المعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص١٤٣).

وقال البرقاني في وصف أبو القاسم عبد الله بن إبراهيم بن يوسف الجرجاني، الآبندوني «كان محدِّثًا زاهدًا مُتقلِّلًا من الدُّنيا، لم يكن يحدِّث غير إنسانٍ واحدٍ، فقيل له في ذلك، فقال: أصحاب الحديث -الذين في زمانه- فيهم سوءُ أدبٍ، وإذا اجتمعوا للسَّماع تحدَّثوا، وأنا لا أصبرُ على ذلك، ثمَّ أخذَ البرقاني يصفُ أمورًا من زهده وتَقلُّلِه، وأنَّه أعطاهُ كسرًا، فقال: دَع الباقلاني يطرحُ عليها ماءً باقلاء، قال: فوقعَت على الكسرةِ باقلاءتان فرفعهما، وقال: هذا الشَّيخ يعطيني كلّ شهرٍ دانقًا حتى أبل له الكسر»[1].

---

(١)- سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٦١).

۞ **ومن صورهم التّواضع لهم.**

قال ذو النُّون: «ثلاثةٌ من أعلامِ الخيرِ في المتعلِّم: تعظيمُ العلماءِ بحسنِ التَّواضعِ، والعمى عن عيوبِ النَّاسِ بالنَّظرِ في عيب نفسِه، وبذلِ المالِ في طلبِ العلمِ إيثارًا له على مَتاع الدُّنيا»(١).

قال أيوب: «يَنبغي للعالم أنْ يَضعَ التُّرابَ على رأسِه تواضعًا للهِ عزَّ وجلَّ»(٢).

قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: «أدركتُ من العِلمِ ما أدركتُ، وما استأذنت على أحدٍ من الشُّيوخ قطّ، إنَّما كنتُ أصبرُ أن يَخرجَ؛ أتأوَّل فيه، قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ ﴾»(٣).

وقال: «كنتُ في تصنيفِ هذا الكتابِ -يريدُ كتابَ غريبِ الحديثِ- أربعينَ سنَةً، وربَّما كنت أستفيدُ الفائدةَ من أفواهِ الرِّجالِ، فأضعُها في الكتاب، فأبيتُ ساهرًا فرحًا مني بتلكَ الفائدةِ، وأحدكم يَجيئني، فيقيمُ عندي أربعةَ أشهُر، خمسةَ أشهُر، فيقول: قد أقمتُ الكثيرَ»(٤).

---

(١)- شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٣٢٦)

(٢)- إبطال الحيل لابن بطة بسنده (ص٢٤).

(٣)- ذكره السلمي في "سؤالات الدارقطني"، رقم (٣٠٢).

(٤)- سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٩٦)، وفي "المصدر نفسه" "قيل: إنَّ أول من سمع (الغريب) من أبي عبيد: يحيى بن معين.

الطبراني: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: عرضت كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد على أبي، فاستحسنه، وقال: جزاه الله خيرًا.

وروى: ابن الأنباري، عن موسى بن محمد: أنَّه سمع عبد الله بن أحمد يقول: كتب أبي =

وعن حجَّاج، قال: كان عمرو بن قيس الملائي إذا بلغَه الحديثُ عن الرَّجلِ، فأراد أن يَسمعَه، أتاه حتى يَجلس بين يدَيه ويَخفضَ جناحَه، ويقول: «عَلِّمنِي رحمكَ اللهُ ممَّا عَلَّمَك اللهُ»(١).

وعن موسى بن يَسار، قال: كان رجاءُ بن حيوة وعدي بن عدي ومكحول في المسجدِ، فسألَ رجلٌ مكحولًا عن مسألةٍ، فقال مكحولٌ: «سلُوا شيخنَا وسيِّدَنا رجاءَ بن حيوة»(٢).

وعن الحسن بن أحمد بن اللّيث، قال: «سمعتُ أحمدَ ابنَ حنبلَ وسألَه رجلٌ فقال: بالري شابٌّ يقال له أبو زرعة، فغضبَ أحمدُ وقال: تقول شابٌّ؟ كالمنكرِ عليه، ثمَّ رفعَ يَدَيه، وجعلَ يَدعو اللهَ عزَّ وجلَّ لأبي زرعةَ، ويقول: "اللهمَّ انصُره على مَن بَغى عليه"، "اللهمَّ عافِه"، "اللهمَّ ادفَع عنه البَلاءَ"، اللهمَّ، اللهمَّ، في دعاءٍ كثيرٍ.

قال الحسنُ: فلمَّا قدمتُ حكيتُ ذلك لأبي زرعةَ وحملتُ إليه دعاءَ أحمد بن حنبل له، وكنتُ كتبتُه عنه؛ فكتبَه أبو زرعة، وقال لي أبو زرعةَ: ما وقعتُ في بليَّةٍ فذكرتُ دعاءَ أحمدَ إلَّا ظننتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُفرِّجُ بدعائِه عنِّي» (٣).

قال عبد الله بن أحمد: قلتُ لأبي: «كتبتُ عن إبراهيم بن موسى الصَّغير،

=
(غريب الحديث) الذي ألفه أبو عبيد أولًا"، وانظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٤٠٧)، و"إنباه الرواة" (٣/ ١٦).

(١)– الجامع للخطيب (١/ ٢١٠).

(٢)– الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢).

(٣)– مقدمة الجرح والتعديل (١/ ٣١٠).

فقال: لا تقُل صغيرًا هو كبيرٌ هو كبيرٌ»(١).

وعن إبراهيم قال: «لقد أدركتُ أقوامًا لو لم يجاوز أحدُهم ظفرًا لما جَاوزته، كفى إزراءً على قومٍ أن تُخالفَ أفعالَهم»(٢).

وعن مالك بن مغول، قال عن طلحة -بن مُصرف-: «انتهيتُ أنا وهو إلى زقاق فتقدَّمني فيه، ثمَّ التفتَ إليَّ فقال: لو أعلمُ أنَّك أكبر مِني بساعةٍ، أو قال بيومٍ، ما تقدَّمتُك»(٣).

وفي ترجمة " أحمدَ بن محمد بن أحمدَ بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان"، قال: «وقدِمَ مرَّةً من الحجِّ، فاستقبَلَه خلقٌ كثيرٌ من أصبهان وهو على فَرَسٍ، فكان يَسيرُ بسَيْرِهم، حتَّى وصلَ قريبًا من أصبَهان، ركضَ فَرَسُه وتركَ النَّاسَ إلى أن وصلَ إلى البلدِ، وقال: أردتُ أن أستعملَ السُّنَّةَ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُوضِعُ راحلتَه إذا رأى جُدُراتِ المدينةِ، وكان مَطبوعًا، حُلْو الشَّمائلِ، استمليتُ عليه بمكَّةَ، والمدينةِ، وكتبَ عنِّي مذاكرةً، وأبطأَ عليَّ يومًا بدارِه، فخرجَ واعتذرَ، وقال: أوقفتُك، فقلت: يا سيِّدي، الوقوف على باب المحدِّثِ عزٌّ، فقال: لك بهذه الكلمةِ إسنادٌ؟ فقلت: لا، قال: أنت إِسنادُها»(٤).

وعن الحسين بن منصور، قال: «كنتُ مع يحيى بن يحيى وإسحاق، يعني ابن راهويه يومًا نعودُ مَريضًا، فلمَّا حاذَينا البابَ تأَخَّرَ إسحاق، وقال ليحيى:

---

(١)- الإرشاد للخليلي (٢/ ٦٦٨).
(٢)- رواه الدارمي في "سننه" (١/ ٢٩٧)، وأحمد في "الزهد" (٢١٦٤).
(٣)- طبقات ابن سعد (٦/ ٣٠٨).
(٤)- تاريخ الإسلام (١١/ ٧٣٢).

تقدَّم، فقال يَحيى لإسحاق: تقدَّم أنت.

قال: يا أبا زكريا، أنت أكبرُ منِّي؟

قال: نعم أنا أكبرُ منك، وأنت أَعلَمُ منِّي، فتقدَّمَ إسحاقُ»(١).

❊

(١)– الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٧١).

۞ **ومن صورهم تكريمهم بالقيام لهم.**

قال ابن طاووس، عن أبيه: «إنَّ من السُّنَةِ أن توقر العالِم»(١).

وقال: «من السنَّةِ أن يُوَقَّر أربعة: العالِمُ، وذو الشَّيبةِ، والسُّلطانُ، والوالِدُ، ومن الجفاء أن يَدعو الرَّجل والدَه باسمه»(٢).

وقال أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي: «لما ماتَ سعيد بن أحمد بن حنبل، جاءَ إبراهيمُ -يعني الحربي- إلى عبد اللهِ بنْ أحمد، فقامَ إليه عبد الله، فقال: تقومُ إليَّ؟ قال: لم لا أقوم إليك؟ والله لو رآك أبي لقام إليك، قال: واللهِ لو رأى ابن عيينة أباك لقامَ إليه»(٣).

وقال القاضي أبو سعيد الخليل بن أحمد السّجزي: سمعتُ أبا محمّد أحمد بن محمد بن اللّيث قاضي بلدنا يقول: جاءَ سهل بن عبد الله التّستري إلى أبي داود السّجستاني -رحمهما اللهُ- فقيل: يا أبا داود، هذا سهل بن عبد الله جاءَك زائرًا -فرَحَّب به واجلَسَه - فقال له سهل: يا أبا داودَ لي إليك حاجةٌ.

قال: وما هي؟

قال: حتى تقول قد قضيتُها مع الإمكانِ.

قال: نعم.

قال: أخرِج إليَّ لسانَك الذي تُحدِّثُ به أحاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ حتى أُقبِّلَه.

---

(١)- جامع بيان العلم (٧١٩) (١/ ٤٥٩).

(٢)- شرح السنة للبغوي (١٣/ ٢٧)، وهو في "مصنف عبد الرزاق" (١١/ ١٣٧).

(٣) -تاريخ بغداد (٦/ ٥٢٢).

قال: فأخرجَ إليه لِسانه فقبَّلَه(١).

وعن ثابت، قال: قلتُ لأنس: أعطني عينَيك التي رأيتَ بهما رسولَ الله ﷺ حتى أُقبِّلَهما"(٢).

وكان حماد بن زيد يقول: كنَّا عند أيوب؛ فجاءَ يونس، فقال حمّاد: قوموا لسيِّدِكم، أو قال لسيِّدِنا.

وعن الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنَّه أتاهُ أبو إبراهيم الزُّهري يُسلِّمُ عليه، فلمَّا رآهُ أحمدُ وثبَ إليه، فقامَ إليه قائمًا وأكرمَه.

فلمَّا مضى قال له ابنه عبدُ الله: يا أبتِ، أبو إبراهيم شاب تَعمل به هذا العمل، وتقوم إليه!

فقال: يا بني لا تُعارضني في مثل هذا، ألا أقومُ إلى ابنِ عبد الرَّحمن بن عوف؟(٣).

وعن محمّد بن الصَّلت قال: كنت عند بشر الحارث يعني الحافي الزَّاهد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فجاءَه رجلٌ فسلَّمَ على بشر، فقامَ إليه بشر، فقمت لقيامه، فمنعني القيام، فلمَّا خرجَ الرَّجلُ قال لي: بشر يا بني تَدري لم مَنعتُك من القيام له؟

---

(١)- تهذيب الكمال (١١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٢)- الجامع (١/ ١٩٠).

(٣)- وأبو إبراهيم هذا اسمه: أحمد بن سعد بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الذهبي في "السير": (١٣/ ١١٨) " وإنما احترمه الإمام أحمد لشرفه ونسبه، ولتقواه وفضله، فمن جمع العمل والعلم، فناهيك به!".

قلت له: لا.

قال: لأنَّه لم يَكن بينك وبَينه مَعرفة، وكان قِيامُك لقيامي فأردت أن لا يكون لك حركة إلَّا لله عزَّ وجلَّ خالصًا(١).

وعن أحمد بن عدي الحافظ، عن عبد المؤمن بن أحمد بن حوثرة قال: كانَ أبو زرعةَ الرَّازي رَحِمَهُ اللهُ تعالى، لا يقومُ لأحدٍ ولا يَجلسُ أحدًا مَكانه إلَّا ابن وارة، فإنِّي رأيتُه يَفعل ذلك معه(٢).

وقال أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش، قال: كنَّا عندَ أبي العبّاس المبردِ إذ جاء أبو عبادةَ البحتريّ فقام أبو العبّاس إليه، فتفاظعَ ذلك منه البحتري، فأنشدَ أبو العبّاس:

أَيُنْكِرُ أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ يَوْمًا لِأُكْرِمَهُ وَأُعْظِمَهُ هِشَامُ

فَلَا تَعْجَبْ لِإِسْرَاعِي إِلَيْهِ فَإِنَّ لِمِثْلِهِ خُلِقَ الْقِيَامُ(٣)

وعن معاذ بن سعيد، قال: كنَّا عندَ عطاء بن أبي رباح، فتحدَّثَ رجلٌ بحديثٍ فاعترض له آخرٌ في حديثه، فقال عطاءُ: «سبحان اللهِ ما هذه الأَخلاقُ؟ ما هذه الأحلامُ؟ إنِّي لأسمعُ الحديثَ من الرَّجلِ وأنا أعلمُ منه، فأريهم من نفسي أنِّي لا أحسنُ منه شيئًا»(٤).

وقال محمد -بن أبي حاتم وراق البخاري-: «وسمعتُ محمَّد بن إسماعيلَ

---

(١)- لله درهم كانوا يرقبون الله في حركاتهم وسكناتهم فنسأل الله الصدق والعافية.

(٢)- ذكرهم النووي في "الترخيص بالقيام" (ص٤٨-٤٩).

(٣)- الجامع للخطيب (١/ ٣٤٦).

(٤)- الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٢٠٠).

يَقولُ: لَمَّا دخلتُ البَصرةَ صرت إلى مجلس بندار، فلمَّا وقعَ بصرُه عليَّ، قال: من أين الفَتى؟

قلت: من أهلِ بُخارَى.

فقال لي: كيف تركتَ أبا عبد الله؟

فأمسكتُ، فقالوا له: يرحمكَ اللهُ هو أبو عبد الله، فقامَ، وأخذَ بيدِي، وعانقنِي، وقال: مَرحبًا بمن أفتخرُ به منذ سِنين»[١].

๑ ❋ ๑

---

(١)– سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤١٥).

❁ **ومن صورهم عدم الحديثِ في مجالسِهم، أو مقاطعَتِهم.**

قال الخليلُ: «حين أردتُ النَّحوَ أتيتُ الحلقةَ فجلستُ سنةً لا أتكلَّمُ إنَّما أَسمَعُ، فلمَّا كان في السَّنَةِ الثَّانيةِ: نظرتُ، فلمَّا كان في السَّنَةِ الثَّالثةِ: تدبَّرتُ، لَمَّا كان في السَّنَةِ الرَّابعةِ: سألتُ وتكلَّمتُ»(١).

وقال أبو طاهر المقدسي: «سمعتُ أبا إسحاق الحبَّال بمصر، يقول: لم يكن في الدُّنيا مثل أبي القاسم بن سعد بن علي الزّنجاني في الفضلِ، وكان يَحضرُ معنا المجالسِ، ويُقرأُ الخَطأُ بين يدَيه فلا يردُّ على أحدٍ شيئًا، ولو قُرِئَ بين يدَيه الكُفر، إلَّا أن يُسأَلَ فإذا سُئِلَ عن شيءٍ أجابَ، وأرى اليومَ بعض الصِّبيان يَتَّبعون الأغلاطَ ويُبادرون بالردِّ على المقرئِ، ولا يُحسنون الأدبَ»(٢).

وقال يحيى: «أخطأَ عفَّان في نيّفٍ وعشرين حَديثًا ما أعلمتُ بها أحدًا وأعلمته فيما بَيني وبَينه ولقد طلبَ إليَّ خلف بن سالم فقال: قُل لي أيّ شيءٍ هي؟

فما قلتُ: له وما رأيتُ على رجلٍ قطّ خطأً إلَّا سترتُه، وأحببتُ أن أزين أمرَه وما استقبلتُ رجلًا في وجهه بأمرٍ يَكرهُه ولكن أبيّن له خطأَه فيما بَيني وبَينه»(٣).

وقال أحمد بن حنبل: لزمتُ هُشَيْمًا أربعَ سنين، أو خمسًا، ما سألتُه عن شيءٍ، إلَّا مرَّتين، هيبةً له، وكان كثيرَ التَّسبيحِ بين الحديثِ، يقول بين ذلك: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يمدُّ بها صوتَه(٤).

---

(١)– الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٠٠).

(٢)– المنثور من الحكايات (ص٣٠).

(٣)–طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٥)، ط: دار المعرفة.

(٤)– سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٩٠).

عن أيوب، قال: «كان الرَّجلُ يَجلسُ إلى الحسن ثلاثَ سنين فلا يسألُه عن شيءٍ، هيبةً له».

وقال ابن شهاب: «جالستُ سعيدَ بن المسيب ستّ سنين تحاك ركبتي ركبتَه، لا أقدرُ منه على حديثٍ إلَّا أنَّي أقولُ: قالوا اليومَ كذا وقالوا اليومَ كذا، فيتكلَّم»[١].

ﮋ ❁ ﮊ

(١)– ذكرهما في "الجامع" (١/ ١٨٤).

۞ **ومن صورهم: تلقيبُهم للبعض بالألقاب الحسنَةِ، ونعتُهم بالنُّعوتِ الطّيِّبةِ.**

قال الزمخشري: «قلَّ من المشاهيرِ في الجاهليَّةِ والإسلامِ مَن ليس له لقبٌ، ولم تزل في الأممِ كلِّها من العربِ والعجمِ تَجري في المخاطَباتِ والمكاتباتِ من غيرِ نكير، غير أنَّها كانت تُطلَقُ على حسب استحقاقِ الموسُومِين بها»(١).

وقال القاضي أبو بكر بن قريعة: «الألقابُ ثلاثة: لقبُ تَعريفٍ، ولقبُ تَشريفٍ، ولقبُ تَسخيفٍ.

فأمَّا لقبُ التَّشريفِ فعضد الدَّولةِ، وتاجُ الملَّةِ، ومعزُّ الأمَّةِ، وما أشبَه ذلك.

وأمَّا لقبُ التَّعريفِ: فابن النقّاطِ، وابن الخيَّاطِ، وابن الخرَّاطِ، وما أشبَه ذلك.

وأمَّا لقبُ التَّسخيفِ: فابنُ قُطقط، وابن زُرقط، وما أشبَه ذلك»(٢).

ومن أمثلة ذلك(٣):

❊الإمامُ مسلم بن الحجَّاج للإمام محمَّد بن إسماعيل البخاريّ وقد قبَّلَ بين عينَيه، وقال: «دَعني حتى أقبِّلَ رِجلَيك! يا أستاذَ الأستاذين، وسيِّدَ المحدِّثين، وطبيبَ الحدِيث في عِلله» (٤).

---

(١)– ربيع الأبرار (٢/ ٤٨٢).

(٢)– التذكرة الحمدونية (٩/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٣)– ينظر كتابي "إبهاج الطالبين بقطوف من ألقاب المحدثين" ط: دار اللؤلؤة.

(٤)– تاريخ بغداد (١٣/ ١٠٢)، ورواه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١٢/ ٤٣٢)، والنووي في "تهذيب الأسماء" (١/ ٩٦).

=

*وعن أبي قتيبة سلم بن قتيبة قال: «قدِمتُ الكوفةَ فأتيتُ سفيانَ الثَّوري.

قال لي: من أين أنت؟

قلت: من أهل البَصرةِ.

قال: ما فعلَ أستاذُنا شُعبة» (١).

***وكان عبد الغني بن سعيد الحافظ كثيرًا إذا حكى عن أبي الحسن الدَّارقطني شيئًا، يقول: قال أستاذِي**: وسمعتُ أستاذي: فقلتُ له: في ذلك، فقال: وهل تَعلَّمنَا هذين الحرفينِ من العِلمِ إلَّا من أبي الحسنِ الدَّارقطني(٢).

***وعن أبي الرَّبيع الزَّهراني قال:** «ذكرتُ لإسماعيل ابن عليَّةَ حديثًا فقال: مَن حدَّثكَ؟

قال: حمَّاد بن زيد

=

وفي فضل أبي عبد الله البخاري يقول الإمام إسحاق بن راهويه: "يا معشر أصحاب الحديث، اكتبوا عن هذا الشاب، فلو كان في زمان الحسن بن أبي الحسن-البصري- لاحتاج الناس إليه، لمعرفته وفقهه" تهذيب التهذيب (٦/ ٤٥-٤٦).

وقال رجاء بن رجاء الحافظ: فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء.

وقال يحيى بن جعفر البيكندي: لو قدرت أن أزيد من عمري في عمر محمد بن إسماعيل لفعلت فإنَّ موتي يكون موت رجل واحد، وموت محمد بن إسماعيل فيه ذهاب العلم" هدي الساري (ص٤٥٥)

(١)- الجرح والتعديل (١/ ١٢٦-١٢٧)، و"الكامل في الضعفاء" (١/ ١٧٩)، و "تاريخ بغداد" (١٠/ ٣٥٣)، و "تهذيب الأسماء واللغات" (ص٢٣٤).

(٢)- تاريخ بغداد (١٣/ ٤٨٧).

قال: شيخُ الشَّباب»(١).

***وَلَمَّا ساق ابن عابدين رَحِمَهُ اللَّهُ سنده إلى الجامع الصَّحيحِ للإمام البخاريّ مصدِّرًا بقوله:** الجامعُ المسندُ الصَّحيحُ لأمير المؤمنين، وسلطانِ المحدِّثين، الحافظُ الشَّهيرُ، والنَّاقدُ البَصيرُ، مَن كان وجودُه من النِّعمِ الكُبرى على العالَمِ، الحافظُ لسنَّةِ سيِّد ولدِ آدمَ، الثبت الحجَّة، الواضحُ المحجَّةِ، محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزْبه(٢).

❐❐❐❐

(١)– الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٣٥٨).

(٢)– ينظر: ثبت ابن عابدين (ص٢٨٧).

نماذجُ مختصرةٌ من سِيَر عُلماء ربَّانيين[١].

سفيان الثوري الإمام الكبير الذي هو غني عن التعريف.

يقول الحافظ ابن رجب عنه: كان أشد تقشفًا في ملبسه من الحسن، حتى كان من يراه ولا يعرفه يظنه من السؤَّال، وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبًا، وإن لم يجد حلالاً استف الرمل، وربما بقي ثلاثًا لا يطعم شيئًا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة.

وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله ويقول: «أطعم الزنجي وكده»[٢].

وكان أزهد الناس في الدُّنْيَا في زمانه حتى كان يتعرى بمجلسه عن الدُّنْيَا ولم تكن السلاطين والملوك والأغنياء أذل منهم في مجلسه، ولا الفقراء والمساكين أعز منهم فى مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه، فلمَّا مرض مرض الموت حُمل ماؤه إلى طبيب فَقَالَ: «لَيْسَ لِهَذَا دَوَاءٌ، هَذَا قَدْ فَتَّتَ الحُزنُ وَالخَوفُ كَبِدَهُ».

ويقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه، ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

---

(١)– وتعمدت أن أذكر بعضًا من سير المتأخرين الذين لم يعرفوا، وأما سير المتقدمين فقد عُرفت، وأُلِّف حولهم بالخصوص أو العموم، وليس المقام مقام توسع واستطرادٍ بالحديث، فهذا يحتاج مؤلفًا خاصًا في مواقفهم وأدبهم، والله الموفق.

(٢) –واليوم طلاب العلم يأكلون ولا يتعبدون ويعملون، بل ينامون ولا يقومون!.

ولما مات قال بعض العُلَمَاء: «معشر أهل الهوى، كلوا الدُّنْيَا بالدين، فقد مات سفيان، يعني؛ ما بقي بعده أحد يستحيا منه»(١).

الشَّيخُ إبراهيمُ بن عطاء بن علي بن محمَّد الشَّافعي المرحومي

إمامُ الجامعِ الأزهرِ، الشَّيخُ الإمامُ العالِمُ، العاملُ العارِفُ بالله تعالى، الملازمُ لطاعته، كان مُنهمكًا على بثِّ العِلمِ، سالكًا سبيلَ السَّلامةِ والنَّجاةِ، مُراقبًا للهِ عالِمًا بما يَنفعه في دُنياه وآخرتِه، مُجتهِدًا في العبادةِ مُتمسِّكًا بالأسبابِ القويَّةِ من التَّقوى، قائمًا منها بما لا يُطيقه سِواه حتى أنَّه إذا مرَّ في السُّوق يَسدُّ أُذنَيه حتى لا يَسمعَ كلامَ مَن بِجانِبيه؛ ويُسرِعُ في مشيتِه مُطرقًا من خوفِ اللهِ وخشيتِه؛ حذرًا من تفويتِ وقتِه في غير عبادةٍ وطاعةٍ، رحلَ من بلدِه إلى الجامعِ الأزهرِ وأخذَ عمَّن به من أكابرِ عُلماءِ عصرِه كالشَّيخِ سلطان وغيره، وأجازَه جلّ شيوخِه بالإفتاءِ والتَّدريسِ فتَصدَّرَ للإقراء، واشتهرَ بالبركة لمن يَقرأُ عليه، وانهمكَ طلَّابُ العِلمِ عليه ففازوا منه بأوفرِ نصيبٍ، وألَّفَ حاشيةً على شرحِ الغايةِ للخطيبِ، واستمرَّ سالكًا طريقَ الاستقامةِ حتى آن أوانُ حِمامِه(٢)، وكانت ولادتُه في سنَةَ ألفٍ وتُوُفِّي بمصرَ في أوائل صفرَ سنَةَ ثلاثٍ وسبعينَ وألفٍ ودُفن بتربةِ المجاورين والمرحومي نسبةٌ لمحلة المرحوم من منوفية مصرَ رَحِمَهُ اللهُ تعالى(٣).

---

(١) -ورثة الأنبياء (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢)- موته ووفاته.

(٣)- الخلاصة للمحبي (١/ ٣١).

📖 **إبراهيمُ بن أبي بكر بن إسماعيل الدُّنابي العوفي نسبتُه إلى عبدِ الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدِّمشقيُّ الصَّالحي الأصلِ**

المصريّ المولدِ والوفاةِ، كان من أعيانِ الأفاضلِ له اليدُ الطّولى في الفرائِضِ والحسابِ مع التَّبحُّرِ في الفِقه وغيرِه من العلوم الدِّينيَّةِ، وهو حَنبليُّ المذهب، نشأَ بمصرَ، وأخذَ الفِقهَ عن العلَّامةِ منصور البهوتي، والحديثَ عن جمعٍ من شيوخِ الأزهرِ، وأجازَه غالبُ شُيوخِه، وألَّفَ مُؤلفات منها: شرحٌ على مُنتهى الإراداتِ في فِقه مَذهبه في مجلَّدات، ومَناسك الحجِّ في مجلَّدَين، ورسائل كثيرةٌ في الفرائض والحسابِ، وكان لطيفَ المذاكرةِ، حسنَ المحاضرةِ، قويَّ الفِكرةِ واسعَ العقلِ، وكان فيه رِياسةٌ وحشمةٌ موفورةٌ ومروءةٌ، وكان من محاسنِ مصرَ في كمال أدواتِه وعلومِه مع الكرمِ المفرطِ، والإحسانِ إلى أهل العلمِ والمتردِّدين إليه، وكان حسنُ الخلقِ والأخلاقِ، وكان يَرجع إليه في المشكلات الدُّنيويَّةِ؛ لكثرة تدبُّره في الأمورِ ومنازلتِه لها، وبالجملةِ فإنَّه كان حسنةً من حسنات الزَّمان، وكانت ولادتُه بالقاهرة في سنةِ ثلاثينَ وألفٍ(١).

📖 **الموفَّقُ عبد اللَّطيف بن يوسف بن محمَّد الموصلي**

من وصاياه، قال: «يَنبغي أن تكون سيرتُك سيرة الصَّدر الأوَّل، فاقرأ السِّيرة النبويَّة، وتتبَّع أفعالَه، واقتفِ آثارَه، وتشبَّه به ما أمكنَك».

«مَن لم يحتمِل ألمَ التَّعلُّمِ لم يَذق لذَّةَ العِلمِ، ومن لم يَكدَح لم يُفلِح».

«إذا خَلوتَ من التَّعلُّمِ والتَّفكُّرِ فحرِّك لسانَك بالذِّكر، وخاصة عند النَّومِ، وإذا حدَّث لك فرحَ بالدُّنيا فاذكر الموتَ، وسرعةَ الزَّوالَ، وكثرةَ المنغِّصاتِ».

---

(١)- المصدر نفسه (١/ ٩).

«إذا حزبك أمرٌ فاسترجع، وإذا اعترتَك غفلةٌ فاستغفِر»(١).

الأوزاعيُّ عبدُ الرحمن بن عمرو بن يحمد.

قال العبَّاسُ بن الوليد: ما رأيتُ أبي يتعجَّبُ من شيءٍ في الدُّنيا، تعجُّبَه من الأوزاعيِّ، فكان يقول: سبحانك، تفعلُ ما تشاءُ! كان الأوزاعيُّ يَتيمًا فَقيرًا في حِجرِ أمِّه، تَنقلُه من بلدٍ إلى بلدٍ، وقد جرى حكمُك فيه أن بلغته حيث رأيته، يا بني! عجزَت الملوكُ أن تُؤدِّبَ نفسَها وأولادَها أدبَ الأوزاعيّ في نفسه، ما سمعتُ منه كلمةً قطّ فاضلةً إلَّا احتاجَ مُستمعُها إلى إثباتِها عنه، ولا رأيتُه ضاحكًا قطّ حتى يُقهقِه، ولقد كان إذا أخذَ في ذكرِ المعادِ، أقولُ في نفسي: أترى في المجلسِ قلب لم يبك؟!(٢).

ومنهم أحمدُ بن أحمد المصري.

الملقَّب شهاب الدّواخلي، الفقيهُ الشافعيُّ، الورعُ الزَّاهدُ النَّاسكُ، إمامُ الفُقهاءِ والمحدِّثين في عصرِه، كان إمامًا جليلًا صدرًا، لا يَخافُ في الله لومةَ لائمٍ، ملازمًا لإقراءِ العِلمِ غير مُشتغلٍ بشيءٍ غيرِه، صارفًا أوقاتَه في الطَّاعة، مُلازمًا للجماعةِ وكان عَظيمَ الهيبةِ، كثيرَ الفِكرةِ، تراهُ دائمًا مطرقًا من خشيةِ اللهِ تعالى ومراقبتِه، حتى قال بعضُ الشُّيوخِ في شأنه: «ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغَبراءُ أخوفَ لله تعالى منه»، سَالكًا طريقَةَ السَّلفِ الصَّالحِ من التقشُّفِ في الأكل والشُّربِ والملبَسِ، لا يُرى مُتكلِّمًا إلَّا في مجلسِ علمٍ أو جوابٍ عن سؤالٍ(٣).

---

(١)- السير للذهبي (٢٢/ ٣٢٢).

(٢)- المصدر نفسه (٧/ ١١٠).

(٣)- الخلاصة (١/ ١٧٣).

📄 **ابن عقيل.**

قال عن نفسه: عصمَني اللهُ في شبابي بأنواع من العصمةِ، وقصرَ محبَّتي على العِلم، وما خالطتُ لعابًا قطّ، ولا عاشرتُ إلَّا أمثالي من طلبةِ العِلمِ، وأنا في عشر الثّمانين أجدُ من الحرص على العِلمِ أشدّ ممَّا كنتُ أجدُه وأنا ابن عشرين، وبلغتُ لاثنتي عشرةَ سنة، وأنا اليومَ لا أرى نَقصًا في الخاطرِ والفكرِ والحفظِ، وحدّةِ النَّظرِ بالعين لرؤيةِ الأهلةِ الخفيَّةِ إلَّا أنَّ القوَّةَ ضعيفةٌ.

قال ابن الجوزيّ: كان ابن عقيل دينًا، حافظًا للحدود، توفِّي له ابنان، فظهرَ منه من الصَّبرُ ما يتعجَّبُ منه، وكان كريمًا يُنفقُ ما يجد، وما خلفَ سوى كتُبه وثياب بدنِه(١).

📄 **ابن الجوزيّ البغداديّ.**

وقال عن نفسه: "ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبي العِلمَ ألقَى من الشَّدائدِ ما هو عندي أحلَى من العسلِ لأجل ما اطلبُ وأرجو كنت في زمان الصِّبا آخذ معي أرغفةً يابسةً فأخرجُ في طلب الحديثِ وأقعدُ على نهر عيسى فلا أقدرُ على أكلها إلَّا عند الماءِ، فكلَّما أكلتُ لقمةً شربتُ عليها؛ وعينُ همَّتي لا ترى ألَّا لذَّةَ تحصيلِ العلمِ، فأثمر ذلك عندي أنِّي عُرفتُ بكثرةِ سماعي لحديثِ الرَّسولِ ﷺ، وأحوالِه وآدابِه وأحوالِ أصحابِه وتابعيهِم"(٢).

---

(١)- سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٦).

(٢)- صيد الخاطر (ص٢٤٨)، وضمنه الشيخ العتر مع كتاب الرحلة للخطيب (ص٢١٩).

أبو عبد اللهِ محمَّد بن نظيف البزَّاز.

كان من الفُقهاءِ البَارعين والأئمَّةِ المعدودين.

ذُكر عنه -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- أنَّه دخلَ إلى موضع تُباعُ فيه الكتبُ، وقد حضرَ ذلك المكان جماعةٌ من العلماء والصَّالحينَ، فلمَّا دخلَ قاموا كلّهم على أرجُلِهم، إجلالًا له وهيبةً؛ لأنَّه كانت له هَيبة لم تكن لأحدٍ من أهلِ وقتِه.

وكان في ذلك المجلسِ السّكاكيني الشَّاعر، فلمَّا رأى تعظيمَهم له وقيامَهم هالَه ذلك، وقال: لقد أُعطيَ هذا الرَّجلُ أمرًا كبيرًا والله لأَختبرنَّه.

قال: فألقَى عليه مَسائلَ من معاني القرآنِ للزّجاج فوجدَه بحرًا لا تكدِّرُه الدِّلاءُ، وكأنَّه إنَّما يُجيبُ من الكتاب لا يَتلعثَمُ في حرفٍ منه، فلمَّا رأى ذلك السّكاكيني، قال لنفسِه: لو قامَ النَّاسُ لهذا على رؤوسهم لكانَ قليلًا.

تخلَّى عن الدُّنيا وانقطعَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وآثرَ ما يَبقى على ما يَفنى. ولَمَّا اشتهرَت إمامتُه خرجَ إلى المشرقِ من إفريقيةَ هربًا من الرِّئاسةِ، ولَمَّا ظهرَ فيها من سبّ السَّلف عند اشتدادِ أمرِ بني عبيد -لعنهم اللهُ تعالى-.

وكانت صفتُه كما قال بعض الحكماءِ: طلبُوا حتى عَلموا، فلمَّا عَلموا عملوا، فلمَّا عَملوا عرفوا، فلمَّا عرفوا طلبوا، فلمَّا طلبوا هَربوا.

وكان الشَّيخُ أبو محمَّد بن أبي زيد يقول: لو كان أبو عبد اللهِ ابن نظيف مُقيمًا بالقيروان لم يَسعني أن أجلسَ هذا المجلسَ لأنَّه أَولى به منِّي، لحفظِه وفهمِه وفِقهِه ودِينِه وورَعِه، وكان يعدُّ في أعلى طبقةِ أصحابِ أبي بكر بن اللّباد.

وكان يحضرُ مجلسَ أبي إسحاق السّبائي وأصحابه للمذاكرةِ، فتخلَّفَ مرَّةً، فسألَه أبو إسحاق عن سبب تخلُّفِه، فقال له: اغتِيبُ في مجلسِك رجلٌ مسلمٌ فلذلك تخلَّفتُ فقال له: فإنِّي تائبٌ.

وكان له إخوةٌ صالحون، ممَّن يُعنى بالعِلم. رحمةُ الله تعالى عليهم(١).

وذكر شيبةَ بن زنون أصحابَ سُحنون.

فقال: «عرستُ فدعوتُ ليلةَ عُرسي جماعةً من أصحابنا منهم أحمدُ بن نمير، فأتوني»، قال: «وكان فيمَن دعوتُ شيخٌ من أهل المشرقِ -كان قَدِمَ علينا- من أصحابِ أحمدَ بن حنبل. وكان النَّاسُ يَسمعون منه العِلمَ، وكان شَيخًا مسمتًا نَبيلًا قلَّما رأينا مِثلَه».

قال: «فكان أصحابُنا في أوَّل اللَّيلِ في قراءةٍ وتغبيرٍ وبكاءٍ وخشوعٍ، ثم أخذوا بعد ذلك في مِسائلِ العِلمِ والمناظرة فيها، ثم ابتدروا بعد ذلك زوايا الدَّارِ يُصلُّون أحزابَهم»، قال: «فنظرَ الشَّيخُ الذي من أصحابِ ابن حنبل فقال: «مَن أصحابُ مَن هؤلاء؟ ومَن مُعلِّمُهم العِلمَ؟ والله ما رأيت أحدًا قطّ أنبل من هؤلاء: أخذوا في أوَّلَ اللَّيلِ في قراءةِ القرآنِ والبكاءِ والخشوعِ، وبعد ذلك أخذوا يَتناظرون في العِلمِ، ثمَّ بعد ذلك وَثَبوا إلى قيامِ اللَّيلِ والتهجُّدِ بأحزابِهم.

والله ما رأينا مثل هؤلاء قطّ، واللهِ ولا يَصحَبُ هؤلاء رجلًا إلَّا نبَّلُوه وشرَّفُوه».

فقيل له: «هؤلاء أصحابُ سُحنون».

قال أبو العرب: حدَّثني عبد الله بن محمَّد، قال: كان الذين يَحضرون مجلسَ سُحنون من العباد أكثر ممَّن يَحضره من طلبة العِلمِ. كانوا يأتون إليه من أقطار الأرضِ(٢).

---

(١)- طبقات علماء القيروان (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٢)- طبقات علماء القيروان (١/ ٤٤٣).

التَّعريفُ بأهمِّ صفاتِ أهلِ العلمِ.

وإذا كان تعظيمُ أهل العلمِ واجبًا، واحترامُهم في الشَّريعة مؤكَّدًا، فلا بدَّ من بيانٍ ومعرفةٍ لأهمِّ صفاتِ أهلِ العِلمِ.

فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ألَّا أنبِّئُكم بالفقيه حقّ الفقيه؟ مَن لم يقنط النَّاس من رحمةِ الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي اللهِ، ولم يُؤمِّنهم مكرَ اللهِ، ولم يترك القرآنَ إلى غيره، ولا خيرَ في عبادةٍ ليس فيها تَفقُّه، ولا خيرَ في فِقهٍ ليس فيه تَفهُّم، ولا خيرَ في قراءةٍ ليس فيها تَدبُّر»(١).

وقيل للإمام أحمد: إنَّ ابن المبارك قيل له: كيف يُعرَفُ العالِمُ الصَّادقُ؟ فقال: «الذي يَزهَدُ في الدُّنيا، ويُقبِلُ على أمر الآخرةِ.

فقال أحمد: نعم، هكذا يَنبغي أن يكون، وكان أحمدُ يُنكِرُ على أهل العِلمِ حبَّ الدُّنيا والحرصَ عليها»(٢).

وعن شريحٍ، قالَ: كنتُ مع عليٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سوقِ الكوفة، حَتَّى انتهى إلى قاصٍ يقُصُ، فوقف عليه فقال: «أيُّها القاصُّ، تقص ونحنُ قريبُ العهد، أمَّا إنَّي أسألُكَ، فإن تخرج عَمَّا سألتك وإلَّا أدَّبتك.

---

(١)– الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٩)، وهذا نص عظيم القدر، بالغ العبارة في وصف أهل العلم، وهو ممَّا ينبغي حفظه والمجاهدة في تطبيقه.

(٢)– شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

قال القاصُّ: سلْ يا أميرَ المؤمنينَ عمَّا شئتَ.

فقال علي: ما ثبات الإيمان وزواله؟

فقال القاصُّ: ثباتُ الإيمانِ الورعُ، وَزوالُهُ الطَّمعُ.

قال عَلِيٌّ: فمثلُك يقُصُ»(١).

وكان مالك بن دينار يقولُ: «اتَّقُوا السّحارةَ-الدنيا-؛ فإِنَّها تَسحَرُ قُلُوبَ العُلماءِ»(٢).

وسئل الإمام عبد اللهِ بن المبارك: هل للعلماءِ علامةٌ يُعرفون بها؟

قال: «علامةُ العالِمِ مَن عَمِل بعلمِهِ.

واستقلَّ كثيرَ العِلمِ والعمل من نفسِهِ.

ورغِبَ في عِلم غيرهِ.

وقبلَ الحقَّ من كلِّ مَن أتاه بهِ.

وأخذَ العلمَ حيث وجدَه، فهذه علامةُ العالِمِ وصفتُه»(٣).

وعن محمد بن عبد الواحد قال: سألتُ ثعلبًا عن هذا الحرف، (رباني)، فقال: سألتُ ابن الأعرابي، فقال: «إذا كان الرَّجلُ عالِمًا، عاملًا، مُعلِّمًا، قيل له هذا ربَّانيّ، فإن خَرَمَ عن خُصلةٍ منها، لم يقل له ربَّانيّ»(٤).

---

(١) –حلية الأولياء (٤/ ١٣٦).

(٢) –الزهد لأحمد (١٨٦٩).

(٣)– انظر: إبطال الحيل (ص٣٤).

(٤)– انظر: الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٥).

۞ **وهم أصحاب الخشيةِ**، قال ابن رجبٍ: «قد كان السَّلفُ لا يُطلقون اسمَ العالِمِ إلَّا على مَن عنده عِلمٌ يوجِبُ له الخشيةَ، كما قال بعضهم: إنَّمَا العالِمُ مَن يَخشى اللهَ، ولقي بخشية اللهِ عِلمًا، وهذا مُطابقٌ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ واللهُ تعالى أعلم»(١).

وعن مسعر، قال: سمعتُ عبد الأعلى التيمي يقول: «مَن أوتيَ من العِلمِ ما لا يبكيه، لخليق أن لا يكون أوتي عِلمًا يَنفعه؛ لأنَّ اللهَ تعالى نعتَ العُلماءَ ثمَّ قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله ﴿ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٩]»(٢).

وعن سعد بن إبراهيم، قال: قيل له: مَن أفقهُ أهلِ المدينة؟ قال: «أَتقاهُم لربِّه عزَّ وجلَّ»(٣).

وقال الأوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: «العالِمُ مَن خشيَ اللهَ، وخشيةُ اللهِ الوَرعُ»(٤).

وعن الأوزاعي، عنه، قال: «العالِمُ مَن يَخشى اللهَ، العلماءُ مثل الملحِ هم صلاحُ كلِّ شيءٍ فإذا فسدَ الملحُ لا يُصلِحُه شيءٌ»(٥).

---

(١)- مجموع رسائل ابن رجب، "مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام"، "(٢/ ٥٦٩-٥٧٠)"، و"(٤/ ٣٦٥)"، ط: أولاد الشيخ.

(٢)- رواه الدارمي في "سننه" (١/ ٣٣٥)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٦٣٦٩)، وأحمد في "الزهد" (١٢٥).

(٣)- رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه (٢/ ٤٨)، وهو عند الدارمي في "مقدمة سننه" (١/ ٣٣٧)، وفي سنده ضعف.

(٤)- تاريخ الإسلام (٩/ ٤٩٢).

(٥)- المصدر نفسه (٨/ ٢٩٨).

وكان القاضي أبو العباس بن طالب، يذكر تَنازعُ الفُقهاءِ المالكيّةِ في المسائل، فربَّما ذكر في المسألةِ خمسةَ أقوالٍ أو ستّة، ثمَّ تَسيلُ دُموعُه، ويضع خدَّه على الأرض، ويقول: «يا فتى: أردت أن يُقال فَقيهٌ! فهل معك عملٌ صالحٌ تَنجو به من عذاب اللهِ؟ وإلَّا فما يُغني هذا عنك»، وما رأيتُ أكثرَ دُموعًا عند ذكر رسولِ اللهِ ﷺ منه، وكان مع ذلك يقولُ أعجبتني نفسِي، فأقول: يا ابن طالب هبك أعظم النَّاس قدرًا، وأكثرهم عِلمًا، أليس يَشفع وراء ذلك كلّه الموت(١).

وقال سُحنون: مثل العِلمِ القليلِ في الرَّجلِ الصَّالحِ مثل العَين العذبةِ في الأرض العذبَةِ يَزرعُ عليها صاحبُها زَرعًا فينتفعُ به، ومثل العلم الكثيرِ في الرَّجلِ غير الصَّالحِ مثل العَين الخرارةِ في الأرض السَّبخةِ تهدرُ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَنتفع بها.

وكان سُحنون يقول على إثر هذا: [هذا] البهلول كان رجلًا صالحًا ولم يكن عندَه من الفِقه ما عند غيرِه، نفع اللهُ تعالى به، وذكر رجلًا آخرَ صحب السُّلطان فقال: إنَّـه بحرٌ من البحور ما نفعه اللهُ بعلمه(٢).

قال إبراهيمُ بن أدهم: «وأيُّ دينٍ لو كان له رِجالٌ! مَن طلب العِلمَ لله، كان الخمولُ أحبّ إليه من التَّطاولِ، والله ما الحياة بثقة، فيرجى نَومها، ولا المنَّيةُ بعذرٍ، فيُؤمَن عذرُها، ففيمَ التَّفريطُ والتَّقصيرُ والاتّكالُ والإبطاءُ؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن طلبِ التَّوبةِ بالتَّواني، ومن العيشِ الباقي بالعيش الفَاني»(٣).

---

(١)– ترتيب المدارك (٤/ ٣٢١).

(٢)– طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/ ٢٠٣).

(٣)– سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٤).

قال مالكُ بن دينار: «مَن تعلَّمَ العِلمَ للعمل كسره عِلمُه، ومَن طلبَه لغير العَملِ زادَه فخرًا»(١).

ﮩ ❃ ﮩ

۞ **ومن صفاتهم: حرصُهم الشَّديدُ على الإخلاص، ومراقبةُ ذلك في نفوسهم**، كما ذُكِر في سيرةِ الإمامِ الماوردي الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، «قيل: إنَّه لم يظهر شيئًا من تَصانيفهِ في حياتِه، وجمعَها في موضع، فلمَّا دَنت وفاتُه، قال لِمَن يَثِقُ به: الكتب التي في المكانِ الفُلانيّ كلّها تَصنِيفي، وإنمَّا لم أظهِرها لأنِّي لم أجد نيَّةً خالصةً، فإذا عاينتُ الموتَ، ووقعتُ في النَّزعِ، فاجعل يدك في يدي، فإنْ قبضتَ عليها وعصرتَها، فاعلم أنَّه لم يُقبَل منِّي شيءٌ منها، فاعمد إلى الكُتب، وألقِها في دِجلةَ، وإن بسطت يدي، فاعلَم أنَّها قبلت.

قال الرَّجلُ: فلمَّا احتضرَ، وضعتُ يدي في يدِه، فبسطها، فأظهرت كتبه»(٢).

وأخرجَ ابن عساكر، عن الأوزاعي، قال: قدِمَ عطاءُ الخراساني على هشام بن عبد الملك فنزل على مَكحول، فقال عطاءُ لمكحول: ههنا أحدٌ يُحرِّكنا؟ -يعني يَعظنا-قال: "نعم، يزيد بن ميسرة فأتوه، فقال له عطاء: حرِّكنا -يعني ذكِّرنا- رحمكَ اللهُ.

قال: نعم، كانت العلماءُ إذا عَلِموا عَمِلُوا، فإذا عَمِلُوا شغلُوا، فإذا شغُلوا

---

(١)- اقتضاء العلم العمل (ص٣٢).

(٢)- السير (١٨/ ٦٦-٦٧)، و "وفيات الأعيان" (٣/ ٢٨٢- ٢٨٣)، و "طبقات السبكي" "(٥/ ٢٦٨)، وفيه عقب هذه القصة: لعل هذا بالنسبة إلى "الحاوي"، وإلا فقد رأيت من مصنفاته غيره كثيرا وعليه خطه، ومنه ما أكملت قراءته عليه في حياته.

فقدُوا، فإذا فقدُوا طلِبُوا، فإذا طلِبُوا هربَوا قال: أَعِد عليَّ، فأعادَ عليه. فرجعَ ولم يلقَ هِشامًا"(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لا يكونُ الرَّجلُ عالِمًا حتى لا يحسدَ مَن فوقَه، ولا يَحقِرَ مَن دونه، ولا يَبتغي بعلمِه ثمنًا»(٢).

﴿ ❁ ﴾

۞ومن صفاتهم: بعدُهم عن آفاتِ اللِّسان، وأمراضِ القلوبِ، وأخصّها الحسَد.

قال ابن الجوزيّ: «تأملتُ التَّحاسدَ بين العلماءِ، فرأيتُ مَنشأَهُ من حبِّ الدُّنيا، فإنَّ علماءَ الآخرةِ يتوادُّون، ولا يَتحاسدون، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ [الحشر:٩]

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الحشر:١٠]

وقد كان أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يدعو كلّ ليلةٍ لجماعةٍ من إخوانه».

وقال الإمامُ أحمد بن حنبل لولد الشافعيّ: «أبوكَ من الستَّةِ الذين أدعو لهم كلَّ ليلةٍ وقتَ السَّحرِ».

والأمرُ الفارق بين الفئتين: أنَّ علماءَ الدُّنيا يَنظرون إلى الرِّئاسةِ فيها،

---

(١)– انظر: ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين (ص٥٠).

(٢)– رواه الدارمي (١/ ٣٣٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٦٣٤)، وسنده ضعيف، وروي نحوه من كلام أبي حازم وهو في "مدارة الناس" لابن أبي الدنيا (٢٩).

ويُحبُّون كثرةَ الجمعِ والثَّناءِ، وعلماءُ الآخرةِ بمعزلٍ من إيثار ذلك، وقد كان يَتخوفونه، ويَرحمون مَن بُليَ به.

وكان النَّخَعَيُّ: «لا يَستندُ إلى ساريةٍ».

وقال علقمةُ: «أكرهُ أنْ يوطّأ عقبي، ويقال: علقمة».

وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة، قامَ عَنهم، وكانوا يَتدافعون الفَتوى، ويُحبُّون الخمولَ»(١).

❊

ومن صفاتهم: التَّواضع وازدراءَ النَّفسِ، وعدم الخوضِ في الحديثِ عن العلماء وتقيمهم.

عن هارون بن أبي وكيع قال: سمعتُ زاذانَ أبا عمر، يقول: «دخلتُ على ابن مسعود فوجدتُ أصحابَ الخزّ واليمنيةَ قد سبقوني إلى المجلس، فناديتُه: يا عبد الله؛ من أجل أنِّي رجلٌ أعمى أدنيتَ هؤلاء وأقصَيتَنِي، فقال: ادنه، فدنوتُ، حتى ما كان بَيني وبينَه جليسٌ»(٢).

وعن الرَّبيع بن أنس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قال: «يكون الغنيُّ والفقيرُ عندك في العِلم سواء» (٣).

وكان من دعاء هرم بن حيَّان: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من شرِّ زمان يتمرَّدُ فيه

---

(١)– صيد الخاطر (ص٣٠)، اللهم ألحقنا الله بركبهم، وثبتنا على غرزهم حتى نلقاك.

(٢)– أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٥٢) ورواه أبو نعيم في "حلية الأولياء"، في ترجمة "زاذان" (٤/ ٢٠١)، والقرطبي في "تفسيره" (١٢/ ١٥١).

(٣)– انظر: تفسير الواحدي (٧٢٤) (٣/ ٤٤٤).

صغيرُهم، ويأملُ فيه كبيرُهم، وتقتربُ فيه آجالُهم»[١].

وقال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجاهلُ لا يعرفُ رُتبةَ نفسِه، فكيف يَعرفُ رُتبةَ غيره»[٢].

وكان الإمام أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يسألُ عن أخلاق الوَرعين، فيقول: «أسألُ اللهَ ألَّا يمقُتَنا»[٣].

وقال مجاهدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهبت العلماءُ فما بقي إلَّا المتعلِّمون، وما المجتهدُ فيكم إلَّا كاللَّاعب فيمَن كان قَبلكم»[٤].

وقال أبو العبَّاس الأبياني: «وسُئِل يومًا عن فَقيهين من أصحابه، وتلاميذِه، وهما أبو القاسم بن زيد، وسعيد بن ميمون. فقيل له: أيُّهما أفقَهُ فقال: إنَّما يَفصِلُ بين عالِمَين مَن هو أعلَمُ منهما»[٥].

---

(١)– انظر: "المجالسة وجواهر العلم" (٢/ ٢١٥).

(٢)– السير (١١/ ٣٢١).

(٣)– المصدر نفسه (١١/ ٢٢٦).

(٤)– نفس المصدر (٣/ ٢٨٠).

(٥)– ترتيب المدارك (٦/ ١٥-١٦).

۞ومن صفات علماءِ الآخرةِ: أن يكونوا مُنقبضين عن السَّلاطين، محتَرزين من مخالطتهم(١).

(١)– ومن النصوص في ذلك:

١–ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «من أراد أن يكرم دينه، فلا يدخل على السلطان، ولا يخلون بالنسوان، ولا يخاصمن أصحاب الأهواء» أخرجه الدارمي في "سننه" (١/ ١٤١٣)، وابن الوضاح في "البدع" (١٢٥).

٢–قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إنما هما عالمان:
عالم دنيا، وعالم آخرة.
فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاتبعوا عالم الآخرة، واحذروا عالم الدنيا، لا يصدنكم بشره، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [التوبة: ٣٤].
الأحبار: العلماء، والرهبان: العباد، ثمَّ قال: لكثير من علمائكم زيه أشبه بزي كسرى وقيصر منه بمحمد ﷺ ، إنَّ النبي ﷺ لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمر إليه» كما في "أخلاق العلماء" (ص٩٠)، ط: رئاسة إدارات البحوث العلمية.

٣–وكان الإمام أحمد– رحمه الله– لا يأتي الخلفاء ولا الولاة والأمراء، ويمتنع من الكتابة إليهم، وينهى أصحابه عن ذلك مطلقا نقله عنه جماعة، وكلامه فيه مشهور.
وقال مهنا: سألت أحمد عن إبراهيم بن الهروي.
فقال: رجل وسخ!!!
فقلت ما قولك إنه وسخ؟
قال: من يتبع الولاة والقضاة فهو وسخ.
قال ابن مفلح معلقًا في "الآداب الشرعية" (٣/ ٤٧٦): «وكان هذا رأي جماعة من السلف، وكلامه في ذلك مشهور منهم سويد بن غفلة وطاووس والنخعي وأبو حازم الأعرج والثوري والفضيل بن عياض وابن المبارك وداود الطائي وعبد الله بن إدريس وبشر بن الحارث الحافي وغيرهم».

=

قال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إيَّاكُم ومواقفَ الفِتنِ.

قيل: وما هي؟

قال: أبوابُ الأمراءِ، يدخلُ أحدُكم على الأميرِ فيصدِّقُه بالكذب، ويقولُ ما ليس فيه».

وقال سعيد بن المسيِّب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتُم العالِمَ يَغشى الأمراءَ، فاحذَروا منه فإنَّــه لصٌّ».

وقال بعض السَّلفِ: «إنَّك لا تُصيبُ من دُنياهم شيئًا إلَّا أصابوا من دِينك أفضلَ منه».

=

٤-وأخرج البيهقي، عن يوسف بن أسباط قال: قال لي سفيان الثوري: «إذا رأيت القارئَ يلوذُ بالسُّلطان فاعلم أنَّه لصٌّ، وإذا رأيتَه يلوذُ بالأغنياء فاعلم أنَّه مُرائي، وإيَّاك أن تخدعَ فيقال لك ترد مظلمةً أو تدفع عن مظلومٍ؛ فإنَّ هذه خدعة إبليس اتخذها للقرَّاء سُلمًا» ذكره السيوطي، "ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين" برقم (٤٩) وروي مرفوعًا وهو ضعيف، انظر: (ص٤٣)، وأخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٣٨٧) من طريق الكرابيسي عن أبي صالح عن يوسف بن أسباط به. وانظر في آفات القراء على سبيل المثال: كتاب العزلة للخطابي، "باب في آفات القراء" (ص٨٨).

٥-وعن محمد بن بشر قال: سمعتُ مِسعرًا يقول: «مَنْ صبرَ على الخلِّ والبقلِ لم يستعبد» كما في "الحلية" (٧/ ٢١٩).

٦-وقال وهب بن منبه: «إنَّ جمع المال وغشيان السلطان؛ لا يبقيان من حسنات المرءِ إلا كما يبقي ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم فباتا يجوسان حتى أصبحا».

٧-وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود، لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة المناجاة من قلوبهم» جامع بيان العلم (١/ ٦٧١).

❁**ومن صفاتِ عُلماءِ الآخرةِ: أن لا يتسرعُوا إلى الفَتوى، وأن لا يُفتوا إلَّا بما يَتيَقَّنُون صِحَّتَه.**

وقد كان السَّلفُ يَتدافعون الفَتوى حتى ترجعَ إلى الأوَّل.

وقالَ عبدُ الرحمن بن أبي ليلى رَحِمَهُ اللَّهُ: «أدركتُ في هذا المسجدِ مائة وعشرينَ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ما أحدٌ يَسألُ عن حديثٍ أو فتوى إلَّا وَدَّ أن أخاهُ كفَاهُ ذلك.

ثمَّ قال: آلَ الأمرُ إلى إقدامِ أقوام يَدَّعون العِلمَ اليومَ، يقدمون على الجوابِ في مسائلَ لو عُرضَت لعمرَ بن الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمعَ أهلَ بدرٍ واستَشارَهم».

❁**ومن صفاتهم**: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمالِ عمَّا يُفسدها ويكدِّرُ القلوبَ ويَهيجُ الوساوسَ، فإنَّ صورَ الأعمالِ قريبةٌ سهلةٌ، وإنمَّا التَّعبُ في تَصفيتها.

وأصلُ الدِّينِ: التَّوقِّي من الشرِّ، ولا يَصحُّ أن يَتوقَّى حتى يَعرفَ.

❁**ومن صفاتهم**: البحثُ عن أسرارِ الأعمالِ الشرعيَّةِ، والملاحظةِ لحكمِها، فإن عجِزَ عن الاطِّلاعِ على العلَّةِ كفاهُ التَّسليمُ للشَّرع.

❁**ومن صفاتهم**: اتِّباعُ الصَّحابةِ وخيارِ التَّابعين، وتَوقِّي كلّ محدِثٍ(١).

---

(١)– ينظر: مختصر منهاج القاصدين (ص٢٥-٢٦).

وقال الشاطبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وللعالِمِ المتحقِّقِ بالعلم أَمَارَاتُ وعلاماتٌ تتَّفِقُ على ما تقدَّمَ، وإن خالفَتها في النَّظرِ، وهي ثلاثٌ:**

إحداها: العملُ بما عَلِمَ؛ حتى يكون قولُه مُطابقًا لفعلِه، فإن كان مخالفًا له؛ فليس بأهلٍ لأن يُؤخَذ عنه، ولا أن يُقتَدى به في عِلمٍ، وهذا المعنى مبين على الكمالِ في كتابِ الاجتهادِ، والحمدُ لله.

والثَّانيةُ: أن يكون ممَّن ربَّاه الشُّيوخُ في ذلك العِلمِ؛ لأخذِه عنهم، وملازمتِه لهم؛ فهو الجديرُ بأن يَتَّصِفَ بما اتَّصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأنُ السَّلفِ الصَّالحِ.

فأوَّلُ ذلك ملازمةُ الصَّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لرسولِ اللهِ ﷺ وأخذُهم بأقوالِه وأفعالِه، واعتمادُهم على ما يرد منه، كائنًا ما كان، وعلى أيّ وجهٍ صدَر؛ فهم فهموا مَغزى ما أرادَ به أوّلًا حتى عَلموا وتيَقَّنوا أنَّه الحقُّ الذي لا يعارضُ، والحكمةُ التي لا يَنكسرُ قانونها، ولا يحومُ النَّقصُ حول حمى كمالها، وإنَّما ذلك بكثرةِ الملازمَةِ، وشدَّةِ المثابرةِ.

وتأمَّل قصَّةَ عمر بن الخطَّاب في صُلحِ الحديبيةِ؛ حيث قال: يا رسولَ الله! أَلسنا على حقٍّ، وهم على باطلٍ؟

قال: "بلى".

قال: أليس قَتلانا في الجنَّة وقَتلاهُم في النَّار؟

قال: "بلى".

قال: ففيمَ نُعطي الدُّنيَةَ في دِيننا، ونرجعُ ولَمَّا يحكم اللهُ بينَنا وبينَهم؟

قال: "يا بن الخطَّاب! إنِّي رسول اللهِ، ولن يُضيِّعَني اللهُ أبدًا".

فانطلَقَ عمر ولم يَصبر، مُتغيِّظًا، فأتى أبا بكرٍ؛ فقال له مثل ذلك.

فقال أبو بكر: إنَّه رسولُ اللهِ، ولن يُضيِّعَه اللهُ أبدًا.

قال: فنزلَ القرآنُ على رسول اللهِ ﷺ بالفتح، فأرسلَ إلى عمر فأقرأَه إيَّاه؛ فقال: يا رسولَ الله! أو فتحٌ هو؟ قال: "نعم". فطابَت نفسُه ورجعَ.

فهذا من فوائد الملازَمَةِ، والانقيادِ للعلماء، والصَّبرِ عليهم في مواطنِ الإِشكالِ؛ حتى لاحَ البُرهان للعَيان.

وفيه قال سهل بن حنيف يوم صفِّين: «أيُّها النَّاسُ! اتهموا رَأيَكم، والله؛ لقد رأيتُني يومَ أبي جندل ولو أنِّي أستطيعُ أن أرد أمرَ رسولِ اللهِ ﷺ لرددته».

وإنَّما قال ذلك لما عرض لهم فيه من الإشكالِ، وإنَّما نزلَت سورةُ الفتحِ بعد ما خَالطهم الحزنُ والكآبةُ؛ لشدَّةِ الإشكالِ عليهم، والتباسِ الأمرِ، ولكنَّهم سلمُوا وتركُوا رأيَهم حتى نزلَ القرآنُ فزالَ الإشكالُ والالتباسُ.

وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم؛ فالتزمَ التَّابعون في الصَّحابة سيرتَهم مع النبيِّ ﷺ حتى فَقهوا، ونالوا ذُروةَ الكَمالِ في العلومِ الشرعيَّةِ، وحسبُك من صحَّةِ هذه القاعدةِ أنَّك لا تَجدُ عالِمًا اشتهرَ في النَّاسِ الأخذ عنه إلَّا وله قُدوة، واشتهرَ في قرنه بمثل ذلك، وقلَّما وجدت فرقةً زائغةً، ولا أحدٌ مخالفٌ للسنَّةِ إلَّا وهو مفارقٌ لهذا الوصفِ، وبهذا الوجهِ وقع التَّشنيعُ على ابن حزم الظَّاهري، وأنَّه لم يُلازِم الأخذَ عن الشُّيوخ، ولا تَأدَّبَ بآدابهم، وبضدِّ ذلك كان العلماءُ الرَّاسخون كالأئمَّةِ الأربعةِ وأشباههم.

والثَّالثةُ: الاقتداءُ بمن أخذَ عنه، والتَّأدُّبَ بأدَبِه، كما عَلمت من اقتداءِ

الصَّحابةِ بالنبيِّ ﷺ واقتداءِ التَّابعين بالصَّحابة، وهكذا في كلِّ قرنٍ، وبهذا

الوصفِ امتازَ مالك عن أضرابه -أعني: بشدَّةِ الاتِّصافِ به- وإلَّا؛ فالجميعُ ممَّن يُهتَدَى به في الدِّين، كذلك كانوا، ولكنَّ مالكًا اشتهَرَ بالمبالغة في هذا المعنى، فلمَّا تركَ هذا الوَصفَ؛ رفعَت البِدعُ رُؤوسها لأنَّ تركَ الاقتداءِ دليلٌ على أمرٍ حدث عند التَّارِك، أصلُه اتِّباعُ الهوى، ولهذا المعنى تقرير في كتابِ الاجتِهادِ بحولِ اللهِ تعالى[1].

❑❑❑❑

(١)- الموافقات (١/ ١٤١-١٤٥).

[التَّمامُ لنصيحةِ الختامِ]

وأختمُ بهذا الأثرِ المبارَكِ بإذن اللهِ تعالى، قال محمَّد بن الفضل الصوفي الزاهد: «ذهابُ الإسلامِ على يدي أربعةِ أصنافٍ من النَّاس، صنفٌ لا يَعملون بما يَعلمون، وصنفٌ يَعملون بما لا يَعلمون، وصنفٌ لا يَعملون ولا يَعلمون، وصنفٌ يَمنعون النَّاسَ من التَّعلُّمِ».

قال ابن القيِّم شارحًا: «**الصِّنفُ الأوَّلُ:** مَن له عِلمٌ بلا عَمل، فهو أضرُّ شيءٍ على العامَّةِ؛ فإنَّه حجَّةٌ لهم في كلّ نقيصةٍ ومَنحسةٍ.

والصِّنفُ الثَّاني: العابدُ الجاهلُ، فإنَّ النَّاسَ يُحسنون الظنَّ به لعبادته وصلاحِه فيقتدون به على جهلِه، وهذان الصِّنفان هما اللَّذان ذكرهما بعضُ السَّلفِ في قوله: «احذروا فتنةَ العالِمِ الفاجرِ والعابدِ الجاهلِ فإنَّ فِتنتَهما فتنة لكلّ مَفتونٍ» فإنَّ النَّاسَ إنَّما يَقتدون بعلمائهم وعبَّادِهم؛ فإذا كان العُلماءُ فَجرَة، والعبَّادُ جهَلَة عمَّت المصيبةُ بهما، وعَظمَت الفِتنةُ على الخاصَّة والعامَّةِ.

والصِّنفُ الثَّالثُ: الذين لا عِلمَ لهم ولا عَمل، وإنَّما هم كالأَنعامِ السَّائمةِ.

والصِّنفُ الرَّابعُ: نوابُ إبليسَ في الأرض، وهم الذي يُثبِّطون النَّاسَ عن طلب العِلمِ والتَّفقُّه في الدِّين؛ فهؤلاء أضرّ عليهم من شياطينِ الجنِّ، فإنَّهم يَحولون بين القُلوبِ وبين هُدى اللهِ وطريقِه.

فهؤلاء الأربعةُ أصناف هم الذين ذكرَهم هذا العارِفُ رحمةُ الله عليه، وهؤلاء كلّهم على شفَا جرُفٍ هارٍ، وعلى سبيلِ الهلكةِ، وما يَلقى العالِمُ الدَّاعي

إلى الله ورسولِه ما يَلقاهُ من الأذى والمحارَبةِ إلَّا على أيديهم واللهُ يَستعمِل مَن يَشاءُ في سخطه كما يَستعملُ مَن يُحبّ في مرضاتِه، إنَّه بعبادِه خبيرٌ بصيرٌ»[١].

اعْمَلْ بعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ... لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ الْعَمَلُ
وَالْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَقْوَى اللهِ زِينَتُهُ ... وَالْمُتَّقُونَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِمْ شُغُلُ
وَحُجَّةُ اللهِ يَا ذَا الْعِلْمِ بَالِغَةٌ ... لَا الْمَكْرُ يَنْفَعُ فِيهَا لَا وَلَا الْحِيَلُ
تَعَلَّمِ الْعِلْمَ وَاعْمَلْ مَا اسْتَطَعْتَ بِهِ ... لَا يُلْهِيَنَّكَ عَنْهُ اللَّهْوُ وَالْجَدَلُ
وَعَلِّمِ النَّاسَ وَاقْصِدْ نَفْعَهُمْ أَبَدًا ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَعْتَادَكَ الْمَلَلُ
وَعِظْ أَخَاكَ بِرِفْقٍ عِنْدَ زَلَّتِهِ ... فَالْعِلْمُ يَعْطِفُ مَنْ يَعْتَادُهُ الزَّلَلُ
وَإِنْ تَكُنْ بَيْنَ قَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ ... فَأْمُرْ عَلَيْهِمْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا جَهِلُوا
فَإِنْ عَصَوْكَ فَرَاجِعْهُمْ بِلَا ضَجَرٍ ... وَاصْبِرْ وَصَابِرْ وَلَا يَحْزُنْكَ مَا فَعَلُوا
فَكُلُّ شَاةٍ بِرِجْلَيْهَا مُعَلَّقَةٌ ... عَلَيْكَ نَفْسَكَ إِنْ جَارُوا وَإِنْ عَدَلُوا"[٢]

تمَّ الخِتامُ من الكتاب بذكرِ ما فيه فائِدَة ونصيحَة، وأسألُ اللهَ أن يَتقبَّلَه ويَجعلَه أجرًا وذُخرًا لي ولوالديّ وأهلِي، وكلّ مَن دلَّ عليه بخيرٍ، أو أوصى به، وساهم بِنشرِه ولو بكلمةٍ أو غيرها، واللهُ الموفِّقُ، والحمدُ لله ربّ العالمين أوَّلًا وآخرًا

❐❐❐❐

(١)– مفتاح دار السعادة، "(١/ ٢٠٠-٢٠١)"
(٢)– اقتضاء العلم العمل، رقم (٤٨).

فهرس المحتويات




اللؤلؤة
لخدمات الطباعة
بإشراف مكـــتـــب اللؤلؤة لخـــدمات الطباعة
01007868983 – 01033336232

{مفكَّرَةُ الفَوائِدِ}

ممَّا صدر للمؤلِّف من الكُتب والأبحاثِ -بحمدِ اللهِ-.

-رسالة عن الغيرة بين خطاب الشَّرع وسلوك الناس ط: دار اللؤلؤة.

-قاعدة بذكر ثلاثة أصول عورضت بها الشَّريعة. ط: دار اللؤلؤة.

-إبهاج الطالبين بقطوف من ألقاب من المحدثين. ط: دار اللؤلؤة.

-معالم في رواية الحديث الضعيف والاستشهاد به. مجلة رواء.

-القصَّاص وموقف السلف منهم. مجلة رواء.

-أدب إعارة الكتاب واستعارته. شبكة الألوكة.

-شرح الأربعين التدبريَّة في مراتب أخذ القرآن. مركز تدبر.

بعضًا من الكتب التي رفعت على الشبكة ومواقع التواصل.

-التعليق على رسالة الإلحاد للعلامة محمد الخضر الحسين.

-إلى أخي خطيب الجمعة خواطر ونصائح.

-التبرج صوره أسبابه ومظاهره.

-شرح كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بذكر الصفات الثلاثة التي يحتاجها الداعية والمحتسب.

-تمام الفرحتين بتهذيب كتاب العيدين.

يصدر بعون الله

-الزبرجد في إيضاح ما في مسند أحمد (دراسة علميَّة مختصرة وشاملة حول المسند وما قامت حوله من أعمال).

-لذَّة العِلمِ والسَّماعِ عند المحدِّثين والعلماءِ.

-اختصارُ علومِ الحديثِ للحافظ ابن كثير الدِّمشقي. عناية وتعليق.